ترجمات

جابرييل جارثيا
ماركيز

غريق على أرض صلبة

مقالات

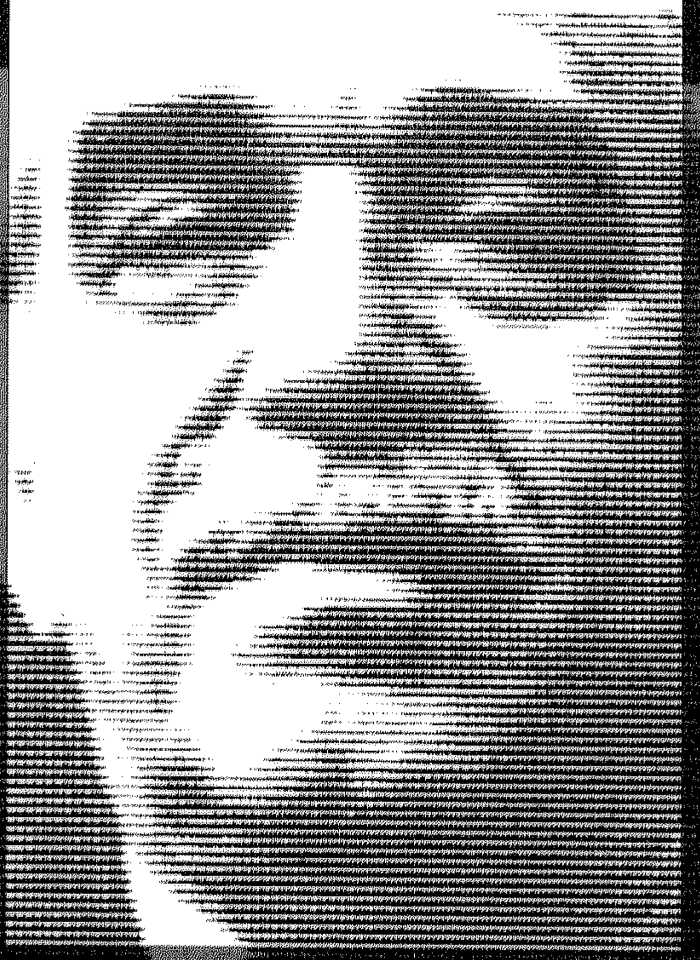

ترجمة: مها عبد الرؤوف

ميريت

غريق على
أرض صلبة

ترجمات

إشراف: ياسر شعبان

غريق على أرض صلبة

ترجمة: مـها السيد عبد الرءوف

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

(c) ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٨٧٧

الترقيم الدولى: 977-351-013-1

جابرييل جارثيا

ماركيز

غريق على أرض صلبة

مقالات

ميريت للنشر والمعلومات

الفهرس

مقدمة	٥
رواية رواء رواية	٩
عاشق غير ناضج	٢٥
الكونت دي مونت كريستو	٣٣
مغالطة لتشتيت الانتباه	٣٧
هل كل قصة قصيرة قصة مملة ؟	٤٣
لغز رجلين يدعيان شافيز	٥١
شاكيرا	٦٥
اقتباس غير مسلح	٧٥
غريق على أرض صلبة	٨١
ورقة بورقة	٩٣
الرجل الذي مات بطريقة طبيعية	٩٩
حكاية قصة	١٠٥
مصيران متقاطعان	١٠٩
شخصية ملتبسة	١١٥
على طريق البابوية	١٢١
سوناتا بريئة	١٣٧

مقدمة

يؤكد ماركيز دائماً إنه ولد صحفياً ولكنه يشرد عن الطريق أحياناً ليكتب قصة هنا ورواية هناك . ولا يخفى على قرائه أنه بدأ حياته محررا في عدة صحف مثل قرطاجنة وكان ذلك ١٩٤٦ ثم في بارنيكا من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٢ . كما عمل أيضا في وكالة الأنباء الكوبية ثم في نيويورك. وعندما تسلم الكاتب الكولومبي الشهير قيمة جائزة نوبل كان أول ما فكر فيه هو شراء دار صحفية يعود من خلالها لممارسة عمله المفضل في الحياة : "لقد ظلت النقود موضوعة في أحد البنوك السويسرية لمدة ستة عشر عاماً نسيت خلالها أمرها تماماً حتى ذكرتني بها مرسيدس فكان أول ما فعلت هو شراء كامبيو" . هكذا يقول بنفسه. وكامبيو Cambio هي مجلة إخبارية أسبوعية حققت نجاحاً تجارياً كبيراً ينسبه كثيرون للمقالات التي يكتبها ماركيز فيها والتي تعتبر وسيلته للتحاور مع قرائه عن طريق الرد على أسئلتهم واستفساراتهم التي تكشف في أحيان كثيرة عن جوانب لم تكن معروفة عن حياته. كما ينقب كثير منها في

أغوار مطبخه الأدبي ليكشف عن كثير من أسرار أشهر أعماله.

وإذا كان أدب ماركيز يعرف بقدرة فائقة على المزج بين الخيال والواقع فيما أسماه النقاد الواقعية السحرية، وإذا كان هذا الأدب أيضاً يرتبط لحد كبير بتوجهات كاتبه السياسية التي تعد جزءاً لا ينفصل عن شخصيته فإن مقالاته لا تخلو أبداً من مزيج عجيب من هذه التأثيرات جميعها وإن كانت في النهاية تكوّن طابعاً مميزاً يعكس وجهاً جديداً لهذا المبدع الكولومبي الشهير.

وعلى الرغم من أن بعض النقاد قد أشاروا إلى أن الهدف الأساسي من هذه المقالات التي ينشرها في مجلة كامبيو هو جذب القراء للمجلة بهدف زيادة التوزيع وتحقيق الربح إلا أن القارئ لها بعناية يمكن أن يكتشف بسهولة خصائص ماركيز وآراءه اللاذعة المغلفة بلكنة ساخرة. وهو نفس ما يميز جميع مقالات ماركيز الأخرى منذ بدأ ممارسة الصحافة.

والحقيقة أن مقالات ماركيز هنا تطرح سؤالاً هاماً طالما ارتبط بالكثير من الأدباء الذين يمارسون الصحافة أو الصحفيين الذين يمارسون الأدب. والسؤال يتركز حول مدى العطاء المتبادل بين المحورين ومدى التأثير الذي يتركه كل منهما على الآخر. ففي بعض الحالات تكون الصحافة عائقاً أمام الأديب سواء من حيث ما تتطلبه من تفرغ أو بما تفرضه عليه من مستوى لغوي بسيط يتناسب مع قارئيها الذين يختلفون أحياناً بطبيعة الحال عن قارئي الأدب. غير أن الملاحظ في

حالة ماركيز أن الصحافة كانت معيناً أدبياً شديد الثراء بالنسبة له.فكثير من رواياته قامت أساساً على خبرات صحفية من تحقيقات وأخبار وغيرها ومنها مثلاً "قصة غريق" و"حكاية موت معلن"و"نبأ اختطاف". ونجد أيضاً أن رواية من اشهر رواياته "خريف البطريرك" قد اختمرت في رأسه بشكل كامل أثناء تغطية صحفية كان يقوم بها لمحاكمة شعبية لأحد الجنرالات المتهمين بجرائم حرب. ومن ناحية أخرى فإن عمله الصحفي أتاح له نفوذا كبيراً في كثير من الأنظمة الحاكمة ومراكز السلطة في أمريكا اللاتينية بالإضافة إلى شبكة اتصالات واسعة بشخصيات سياسية ما كانت شخصيته كأديب ستسمح له بها . فلا يخفى على أحد علاقته الوثيقة بفيدل كاسترو والتي كانت في كثير من الأحيان تثير حوله الأقاويل . ومع علاقته بكاسترو فنحن نراه في مقال له يتحدث عن العشاء الذي تناوله مع طرف مناقض وهو الرئيس الأمريكي بيل كلينتون . ومن هنا فقد كانت هذه اللقاءات مادة خصبة شديدة الجاذبية بالنسبة للقراء. واستطاع ماركيز بمهارة لافتة أن يطعم هذه المقالات بآرائه السياسية التي ربما تستدعي إلى الأذهان فترة السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي والتي يعدها النقاد أكثر فترات حياته نشاطاً من الناحية السياسية.

إن ماركيز يؤكد دائماً أن معظم القصص القصيرة التي كتبها هي في الواقع أحداث حقيقية مر بها وإن كان يصعب على القارئ في بعض الأحيان أن يدرك ذلك نظراً لهذا الجو السحري الذي يغلفها به. ومن هنا فإن هذه المقالات فرصة

لقارئ ماركيز لأن يعيش مع الكاتب بعض تجاربه على أرض الواقع وإن كان بشكل لا يخلو من الإثارة.

ومع ذلك فلا يفوت الكاتب الشهير أن يطلع قراءه على بعض أسراره الأدبية .فمائة عام من العزلة قد حققت نجاحا طبق للآفاق ولكن لم يكن أحد يعرف رحلة المعاناة التي خرج من خلالها هذا العمل إلى النور . وماركيز لا يخجل من الحديث عن بعض الاقتباسات التي استعان بها في أشهر أعماله والتي وصلت أحيانا للنقل الحرفي من بعض الكتاب . وفي مقالات أخرى يتقمص "نوبل كولومبيا "– كما يطلق عليه في وطنه– شخصية الناقد فيشارك القارئ آراءه حول أعمال أدبية معينة . وليس هناك مانع من أن يتطرق إلى الموسيقى والغناء حتى يكون بذلك قد حقق مهمته وأرضى جميع الأذواق.

إن قارئ جابرييل جارثيا ماركيز قد قرأ رواياته وعاش مبهورا في أجوائها كما قرأ قصصه القصيرة وعشقها ثم تأتي هذه المقالات لتعكس وجهاً آخر يقترب فيه من كاتبه المحبوب لدرجة زالت معها جميع الحواجز والحدود.

رواية رواء الرواية

عرضت مؤخراً في إحدى صالات المزادات ببرشلونة إحدى المسودات المصححة بخط اليد لواحدة من أشهر الروايات في تاريخ الأدب : "مائة عام من العزلة" رائعة كاتب نوبل الكولومبي الشهير جابرييل جارثيا ماركيز. بهذه المناسبة كتب ماركيز هذا المقال في عموده الشهير في مجلة كامبيو الكولومبية التي يرأس تحريرها يسترجع فيه أهم ذكريات رحلة كفاحه ليخرج هذا العمل للنور.(١)

في أوائل شهر أغسطس من عام ١٩٦٦ توجهت أنا ومرسيدس إلى مكتب سان أنجل للبريد في المدينة المكسيكية

---

(١) على الرغم من الآمال التي علقت بالمزاد والتوقعات التي أشارت إلى بيع المسودة بسعر قد يتخطى نصف مليون دولار إلا أن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن لتأتي الهجمات الأخيرة على الولايات المتحدة وينسحب معظم الذين أعلنوا من قبل في حماس رغبتهم في الحصول على العمل بأي ثمن ومنهم إحدى الجامعات الأمريكية وزبون فرنسي فقد عدداً من أصدقائه في الحادثة . وعلى هذا تم إلغاء المزاد لأن أحداً من المشاركين لم يقترب من الحد الأدنى الذي حدد مسبقاً له.

لأرسل النسخة الأصلية من روايتي "مائة عام من العزلة" إلى بوينوس أيرس. كان مظروفاً يحتوي على خمسمائة وتسع صفحات مكتوبة على ماكينة مزدوجة على ورق عادي للغاية وموجهة إلى السيد باكو بروا المدير الأدبي لدار سودأمريكانا للنشر. قام موظف مكتب البريد بوضع المظروف على الميزان ثم أجرى حساباته المعتادة وقال :

- سيتكلف هذا اثنين وثمانين بيزو .

عدت مرسيدس الأوراق والعملات المعدنية التي كانت تحملها في حقيبتها ثم واجهتني بالحقيقة قائلة :

- ليس معنا سوى ثلاثة وخمسين بيزو.

كنا قد اعتدنا تماماً على تلك الأزمات اليومية بعد عام كامل من الأزمات المادية لدرجة أننا لم نفكر كثيراً في الحل . لقد فتحنا المظروف وقسمنا الأوراق إلى جزأين متماثلين أرسلنا النصف الأول فقط إلى بوينوس أيرس دون أن نسأل أنفسنا كيف سنتمكن من إرسال الباقي. كانت الساعة السادسة مساء يوم جمعة ولن تفتح مكاتب البريد قبل يوم الاثنين ولذلك كان لدينا نهاية الأسبوع بطولها لنفكر في الحل.لم يكن قد تبقى لدينا سوى القليل من الأصدقاء الذين يمكن أن نثقل عليهم بإقراضنا كما أن أفضل ممتلكاتنا كانت تقبع بجوار معروضات "مونت دي بيداد" . كان لدينا بالتأكيد الماكينة المتنقلة التي جلست أمامها لمدة ست ساعات يومياً لما يزيد عن عام لأنتهي من كتابة الرواية. ولكن ما كان يمكن لنا أن نرهنها لأنها كانت مصدر الرزق بالنسبة لنا. بعد مراجعة دقيقة للمنزل وجدنا

شيئي فقطن يمكن عرضهما للرهن : المدفأة في حجرة مكتبي وهي لم تكن لتساوي الكثير وخلاط أهدته لنا السيدة سوليداد مندوثا في كاراكاس بعد زواجنا. كان لدينا أيضاً خاتما الزواج اللذان لم نجرؤ يوماً على رهنهما لما يعنيه ذلك من فأل سيئ . ولكن في تلك المرة حسمت مرسيدس الأمر وقررت عرضهما باعتبار أنهما كانا احتياطاً استراتيجياً للطوارئ.

مع أول ساعات صباح الاثنين توجهنا إلى أقرب فروع "مونت دي بيداد" حيث كنا من العملاء المعروفين لديهم . وهناك أعطونا - بدون خاتمي الزواج - ما يزيد قليلاً عما كنا نحتاج. وما كدنا نصل إلى مكتب البريد وننظر إلى باقي المظروف حتى اكتشفنا أننا عكسنا الرواية فبدأنا بإرسال الصفحات الأخيرة منها قبل البداية. غير أن مرسيدس لم تعبأ بالأمر بل قالت: - إن الشيء الوحيد الذي ينقصنا الآن هو ألا تكون الرواية جيدة .

كانت هذه العبارة هي النهاية الملائمة لثمانية عشر شهراً كافحنا خلالها سويا لننتهي من الكتاب الذي كنت أعلق عليه جميع آمالي . فحتى ذلك الحين كنت قد نشرت أربعة كتب خلال ست سنوات وحصلت مقابلها على ما هو أفضل من لا شيء . باستثناء كتاب "ساعة النحس" الذي نلت عنه جائزة بلغت ثلاثة آلاف دولار في مسابقة "اسو كولومبيانا" وقد نفعتني في مصاريف ولادة ثاني أبنائي جونثالو بالإضافة إلى أننا اشترينا بها أول سيارة لنا .

كنا نعيش في منزل من منازل الطبقة الوسطى يقع

على رابية ســان أنخل ان والتي كـان يملكهـا العمـدة المحـامي لويس كودوريير الـذي كـان مـن بيـن فضائلـه الاهتمـام بشـكل شخصي بأمور مستأجري المنزل .

رودريجو الـذي كـان فـي ذلـك الوقـت فـي السادسـة و جونثالو الذي كان في الثالثة كان لديهما في ذلك المـنزل حديقـة جميلـة يلعبـان فيهـا فـي الأوقـات التـي لا يذهبـان فيهـا إلـى المدرسة. وكنت أنا أعمل كمنسق عـام لمجلتـي "سوثسيسـوس " و"لا فاميليا" حيـث أتمـت - مقـابل راتـب لا بـأس بـه - عـامين كاملين لم أكتـب خلالهمـا حرفـاً . كـارلوس فوينتـس وأنـا نقلنـا أيضاً إلى السينما قصـة الديك الذهبـي التـي كتبهـا خـوان رولفـو وقام بتصوير الفيلم روبرتو جابلدون . كما عملـت مـع فوينتـس فـي النسـخة النهائيـة مـن سيناريو فيلـم "بدرو بـارامو"للمخـرج كارلوس بيلو . وكتبت أيضاً سيناريو فيلم "وقت المـوت" وكـان الأول للمخرج أرتورو ربستين . في الساعات القليلة التي كانت تتبقـى لـدي كنـت أقوم بعدد مـن الأعمـال المؤقتـة مثـل إعـداد النصوص للنشر وإعلانـات التلفزيـون وكتابـة بعـض الأغـاني. وكل ذلك كان يكفيني للعيش بشكل معقول ولكنه لم يكـن يسـمح لي بمواصلة كتابة القصص القصيرة والروايات .

وعلى الرغم من ذلك فثمة فكـرة جريئـة لروايـة ظلـت تؤرقني لفترة طويلة . لم تكن فكرة مختلفة عن كل ما كتبته من قبل فحسب بل كانت تختلـف تمامـاً عـن كـل مـا قـرأت . كـانت نوعاً من الرعب غير معروف المصـدر . كـان ذلـك فـي بدايـة عام ١٩٦٥ عندما اصطحبت مرسيدس والطفلين لقضـاء عطلـة

نهاية الأسبوع في أكابولكو . شعرت حينها أني أكاد انفجر من شدة ما كان يعتمل في نفسي . كنت شديد التوتر والتشبع بالفكرة حتى أني تفاديت بصعوبة بقرة كانت تعبر الطريق أمام السيارة حتى أن رودريجو صاح بفرح قائلا:

- أنا أيضا عندما أكبر سأدهس الأبقار على الطريق!!

لم أنعم بأية لحظة من الهدوء على الشاطئ . يوم الأربعاء عندما عدنا إلى المكسيك جلست إلى الماكينة لأكتب جملة البداية التي لم أحتمل أن أحتفظ بها داخلي أكثر من ذلك : "بعد عدة سنوات ، وأمام فصيلة الإعدام ، كان على الكولونيل أورليانو بوينديا أن يتذكر ذلك اليوم البعيد الذي اصطحبه فيه والده ليتعرف على الثلج ...." ومنذ تلك اللحظة لم أنقطع يوما عن مواصلة الكتابة حتى السطر الأخير حتى بدا الأمر كأنه حلم مسيطر .

* * *

في الشهور الأولى تمكنت من أن أحافظ على أفضل مستوى من الدخل يمكن تحقيقه. ولكن مع الوقت بدأت أحتاج لمزيد من الوقت لأكتب كما أريد . كنت أعمل حتى وقت متأخر جدا من الليل لكي أنتهي من الالتزامات المنوطة بي حتى أصبحت الحياة مستحيلة بالنسبة لي . رويدا رويدا أخذ الواقع الذي لا يقاوم يجبرني على الاختيار بلا تردد بين الكتابة أو الموت. لم أتردد لأن مرسيدس - أكثر من أي وقت مضى- تكفلت بكل شيء بعدما أرهقنا جميع الأصدقاء. أصبح لدينا

حساب مفتوح لا أمل في سداده لدى بقال الحي والجزار على الناصية. وكنا منذ أول الأزمات التي تعرضنا لها نقاوم بشدة فكرة القروض ذات الفائدة إلا أننا وجدنا أنفسنا في النهاية مضطرين لأن نقوم بأول زيارة ل"مونت دي بيداد ". وبعد مرتين أخريين رهنا خلالهما بعض الأشياء البسيطة بدأنا نلجأ لمجوهرات مرسيدس التي تلقتها كهدايا من أقاربها طوال السنوات التي تلت زواجنا . وعندما عرضناها على خبير المحل أخذ يتفحصها بدقة جراح ثم أخذ يختبرها ويتفحصها بعدسة سحرية .. الماس في الأقراط والزمرد في العقد والياقوت في الأساور وفي النهاية أعادها إلينا قائلاً :

- إنها من الزجاج الخالص.

لم يكن لدينا من الوقت أو المزاج ما يجعلنا نتوقف كثيراً لنفكر متى تم استبدال الأحجار الكريمة التي احتفظنا بها طوال سنين بالزجاج ذلك أننا كنا نعلم مسبقا أن نذير الشؤم يحوطنا من كل جانب .

قد لا تصدقون ذلك ولكن اكبر مشاكلي في الكتابة كانت مع الورق، إذ ترسخ لدي اعتقاد بأن الأخطاء الطباعية أو الإملائية أو أخطاء النحو هي في واقع الأمر أخطاء في إبداع الكاتب. ومن ثم فإني كلما اكتشفت أحد هذه الأخطاء كنت أسارع بتمزيق الورقة كلها أشلاء وأبدأ من جديد . كانت مرسيدس تصرف ما يقرب من نصف ميزانية المنزل لشراء رزم الأوراق التي ما كانت تستمر لأكثر من أسبوع . وربما لهذا لم أجرؤ على استخدام ورق الكربون.

مشاكل بسيطة مثل هذه ضيقت حولنا الخناق حتى لم يعد لدينا من الجهد ما نقاوم به. الحل النهائي والذي كان يتمثل في رهن السيارة التي اشتريناها حديثاً دون أن تخامرنا شكوك في أن يكون العلاج أخطر من الداء. ذلك أننا على الرغم من سدادنا الديون المتأخرة بقى لنا أن نسدد الفوائد الشهرية التي بدت كأنما تعلقنا من عنقينا في هاوية من الجحيم . ولحسن حظنا أن صديقنا كارلوس مدينا قد تطوع بتسديد هذه الفوائد ليس عن شهر واحد فحسب بل عن عدة شهور واستطعنا بذلك أن ننقذ السيارة . ومنذ سنوات قليلة فقط علمنا أنه اضطر إلى رهن أحد ممتلكاته ليسدد فوائد ديوننا .

بدأ الأصدقاء المخلصون يقسمون أنفسهم إلى مجموعات لزيارتنا كل ليلة. وكانوا يأتون وقد اشتروا بالصدفة الكتب والمجلات أو أنهم يمرون بالصدفة أيضا لدى عودتهم من السوق محملين بالمشتروات. كارمن وألبارو موتيس كانا أكثر المواظبين على زيارتنا. وأصبح عليّ بشكل مستمر ان احكي لهما فصلاً من الرواية الجديدة وكنت أجهد لأبتكر لهما حكايات مما أحفظه للحالات الطارئة لأنه كان في ظني في ذلك الوقت أن قص ما عكفت على كتابته حقا كان ليخيف العفاريت.

كارلوس فوينتس على الرغم من خوفه من الطيران كان يقطع العالم ذهابا وإيابا. وكانت عودته دائما عيداً لنا نتناقش فيه حول أعمالنا الجديدة كما لو كنا شخصا واحداً. واعتبرت ماريا لويس اليو وزوجها خومي جارثيا ما كنت

أرويه علامة على العناية الإلهية . وعلى هذا فلم أتردد على الإطلاق في إهداء الكتاب لهما . وشعرت حينذاك أن ردود الأفعال والحماسة التي تحيطني من الجميع بمثابة أنوار تضيء لي طريقي إلى الرواية الحقيقية.

لم تعد مرسيدس تحدثني عن القروض ومشاكلها حتى مارس من عام ١٩٦٦ أي بعد عام من بداية كتابة الرواية وذلك بعد أن اصبح متأخرا علينا إيجار ثلاثة اشهر .كانت تتحدث مع المالك في الهاتف كما اعتادت دائماً لتحاول تهدئته ليصبر علينا في الدفع وفجأة وضعت يدها على سماعة الهاتف لتسألني عن الوقت المتبقي للانتهاء من ذلك الكتاب . وبالنظر إلى القدر الذي أنجزته في عام من الكتابة حسبت أنه يتبقى لي حوالي ستة شهور وعندئذ قالت مرسيدس للمالك الصبور في ثقة ودون أية رجفة في صوتها :

- نستطيع أن نسدد لك كل شيء خلال ستة أشهر.

- اعذريني سيدتي – قال المالك في دهشة- ولكن ألا ترين أن المبلغ سيكون ضخماً حينذاك؟!

- نعم أنا أدرك ذلك – قالت مرسيدس – ولكن في ذلك الوقت ستكون جميع مشاكلنا قد حلت . فلتهدأ إذاً.

كان الرجل واحداً من أكثر من عرفت ذوقا وصبرا ولذلك فقد قال بصوت مرتعش :

- حسناً سيدتي .. تكفيني كلمة منك – ثم قام بحساباته وقال- سأنتظر المبلغ في السابع من سبتمبر القادم .

وقد أخطأ الرجل .. ففي الرابع من سبتمبر ومع أول

شيك أتلقاه بشكل غير منتظر إطلاقا عن الحقوق الأدبية للطبعة الأولى دفعنا له .

والواقع أن الشهور الستة الأخيرة كانت شاقة للغاية . وأخذ الأصدقاء المقربون المطلعون على الأحوال يزيدون من زياراتهم لنا محملين على الدوام بكل ما يساعد على مواصلة الحياة.

وهناك أصدقاء آخرون مثل لويس ألكوريثا وزوجته الأسترالية جانيت ريسنفيلد اللذين لم يكونا من معتادي الحضور إلينا ولكنهما كانا يقيمان في منزلهما حفلات تاريخية مع الكثير من الأصدقاء ومجموعات من الفتيات يفوق جمالهن ممثلات السينما . وفي كثير من المرات كانت هذه الحفلات تتخذ ذريعة لرؤيتنا . كان لويس هو الإسباني الوحيد الذي يقدر- خارج إسبانيا – على صنع العجة التي تماثل ما تشتهر به فالينسيا . أما هي فقد كانت قادرة على حملنا في الهواء برقصها الكلاسيكي الرائع . أما آل جارثيا ريرا العاشقون للسينما فقد كانوا يدعوننا إلى منزلهم أيام الآحاد حيث يشبعوننا بقدر من السعادة يساعدنا على مواجهة الأسبوع المقبل.في ذلك الوقت كنت قد تقدمت في الرواية للحد الذي سمح لي برفاهية الاستمرار في غزل الحكايات التي كنت أبتكرها في جلسات الأصدقاء . وكنت أندهش من السرعة التي تنتقل بها هذه القصص بين الأفواه بل ومن التفاصيل التي تضاف إليها في تلك الأثناء .

* * *

في نهاية شهر إغسطس ومن يوم لآخر بدا لي أنني أقترب من اللحظات الأخيرة من الرواية. ولأنني لم أستخدم ورق الكربون فلم يكن لدي نسخ أخرى من هذا الجزء بشكل جعل النسخة الأصلية تتكون فقط من ألفى ورقة من القطع الصغير . وكان هذا بمثابة وليمة رائعة لاسبيرانتا ارياشا أو بيرا التي لا تنسى . كانت بيرا ملجأ للشعراء والسينمائيين. فقد اعتادت في أوقات فراغها أن تنسخ بشكل واضح للغاية بعضاً من كبرى أعمال الكثير من الكتاب المكسيكيين ومنها "المنطقة الأكثر وضوحا"لكارلوس فوينتس و"بدرو بارامو" لخوان رولفو والعديد من سيناريوهات الأفلام. وعندما طلبت منها أن تنسخ لي الرواية في شكلها الأخير كانت المسودة مرقعة تقريباً ومشوهة بالإصلاحات ،مرة بالحبر الأسود وأخرى بالأحمر لتجنب الخلط . غير أن هذا لم يكن بالأمر الصعب على امرأة متمرسة مثل بيرا التي لم تقبل المسودة بدافع الفضول لقراءتها فحسب بل وافقت على أن أدفع لها ما أستطيعه على أن يؤجل الباقي حتى أحصل على حقوق المؤلف.

كانت بيرا تنسخ فصلاً كاملاً في الأسبوع بينما أقوم أنا بإصلاح الفصل التالي بأحبار من ألوان مختلفة لتحاشي التشويش . ولم يكن هدفي من تلك الإصلاحات اختصار الرواية أو جعلها أقصر ولكني فقط كنت أرغب في أن أصل بها إلى أقصى درجات الكثافة حتى أنه لم يتبق منها في النهاية سوى نصف الأصل.

بعد صدور الرواية بسنوات اعترفت لي بيرا بأنها

عندما كانت تحمل الفصل الثالث من الرواية إلى المنزل انزلقت قدمها عند النزول من الحافلة بفعل بركة من ماء المطر وقالت لي إن الأوراق راحت تطفو على صفحة البركة الموحلة . وقامت هي - بمساعدة من الركاب الآخرين - بجمع الأوراق بعد أن أصبحت مبتلة تماماً ومهترئة وأخذتها إلى المنزل وقامت بتجفيفها بقطعة قماش.

من أكثر المواقف التي مرت بي مع بيرا طرافة هو ما حدث في أحد أيام السبت عندما لم أكن قد انتهيت من تصحيح الفصل الذي كانت ستتسلمه مني فاتصلت بها وقلت لها إني سأحضره لها يوم الاثنين . وبعد حديث طويل تجرأت وسألتني عما إذا كان أورليانو بونديا سينام في النهاية مع ريميديوس موسكوت . وعندما أخبرتها بأن هذا سوف يحدث أطلقت زفرة ارتياح وقالت :

- حمداً لله ..إذا لم تكن أجبتني ما كنت لأنام حتى يوم الاثنين .

في ذلك الوقت وصلني خطاب غير متوقع من باكو بروا - الذي لم أكن قد سمعت به من قبل - يطلب مني فيه حقوق نشر جميع أعمالي لدار النشر سود أمريكانا التي يرأس القسم الأدبي بها. وأخبرني انه يعرف أعمالي جيداً لأنه قرأ الطبعات الأولى منها . في الواقع كاد قلبي يتمزق. ذلك أن كل هذه الأعمال كانت موزعة بين دور نشر مختلفة ومرتبطة بعقود طويلة المدى ولم يكن من السهل على الإطلاق التحرر منها .كان عزائي الوحيد فكرة طرأت لي فكتبت أخبره أني

على وشط الانتهاء من رواية طويلة جداً لست ملتزماً بها تجاه أية جهة أنني أستطيع أن أرسل له النسخة الأولى منها في غضون أيام.

وافق باكو على الاقتراح في برقية أرسلها لي كما أرسل لي في البريد شيكاً بخمسمائة دولار كمقدم كانت تكاد تكفي لدفع الإيجار المتأخر علينا والذي لم نكن نعرف كيف سنسدده بعد أن أخطأت في حساب الوقت الذي سأنتهي فيه من كتابة القصة.وعلى أية حال فقد كانت النسخ الثلاث الواضحة التي نسختها بيرا بورق الكربون جاهزة في أسبوعين أو ثلاثة. كان ألبارو موتيس هو أول قارئ للنسخة النهائية قبل إرسالها . لقد اختفى لمدة يومين وفي الثالث حادثني هاتفياً وهو يتفجر بذلك الغضب المحبب عندما اكتشف أن روايتي لا علاقة لها في الواقع بما كنت أرويه لأرفه عن الأصدقاء والذي كان بدوره يقصه على أصدقائه وصاح بي قائلاً :

- لقد جعلتني أبدو مثل الخرقة البالية ...إن روايتك لا تمت بصلة لتلك التي كنت تحكيها لنا - ثم انفجر في الضحك و أضاف - ولكن الجيد في الأمر أنها أفضل بكثير.

* * *

لا أعرف إذا كنت في ذلك الوقت قد وضعت عنواناً للرواية أو متى أو أين او كيف خطر لي ذلك العنوان. كما لا يستطيع أي من الأصدقاء تحديد ذلك بالمرة . هل يستطيع أي

مؤرخ خصب الخيال أن يصنع بي معروفا ويبتكر إجابة مناسبة ؟!

كانت النسخة التي قرأها ألبارو موتيس هي التي أرسلت على مرتين إلى بوينوس أيرس. أما الثانية فقد حملها بنفسه بعد أيام إلى نفس المكان في إحدى رحلاته وبالنسبة للثالثة فقد أخذ الأصدقاء الذين وقفوا معنا في المحنة يتلقفونها فيما بينهم.

عندما تسلمنا النسخة المطبوعة الأولى من الكتاب في يونيو ١٩٦٧ قمت أنا ومرسيدس بتمزيق المسودة التي استعانت بها بيرا في عملية النسخ .لم يخطر في بالنا حينذاك أنها من الممكن أن تكون أعلى قيمة من جميع النسخ الأخرى بكل ما فيها من تصويبات وبالفصل الثالث غير المقروء بفعل ماء المطر وعملية الكواء التي تعرض لها . وفي حقيقة الأمر فإن غرضي لم يكن بريئاً أو أميناً. ذلك أني مزقت المسودة حتى لا يتمكن أحد من معرفة واكتشاف أسرار الصنعة. وعلى الرغم من ذلك فأعتقد أنه مازالت هناك في مكان ما من العالم نسخ أخرى مكتوبة بخط اليد وخاصة النسختان اللتان أرسلتا إلى دار سود أمريكانا. وقد فكرت دائماً أن يكون باكو بروا محتفظاً بهما حتى الآن غير انه نفى ذلك تماماً وبالنسبة لي فإن كلمته كالذهب.

عندما أرسلت لي دار النشر تجربة الطباعة الأولى حملتها بما فيها من تصويبات إلى احتفال في منزل آل الكوريثا. وكان السبب الأول في ذلك هو أن ضيف الشرف في

ذلك الحفل كان هو المخرج لويس بونيويل . وكان بونيويل يرى أن فن التصحيح ليس المقصود منه الوصول للأفضل بقدر ما يهدف إلى الاستكشاف . رأيت مدى السعادة التي ارتسمت على وجه ألكوريثا بفعل هذا الحوار بين ضيفيه وعلى هذا فقد قررت على الفور أن أهديه هذه النسخة من التجربة الطباعية . وكتبت في الإهداء جملة اعتبرتها جانيت ولويس مكررة ولكنها كانت صادقة: "من أكثر صديق أحبكما في هذا العالم". وبجوار الإمضاء كتبت التاريخ ١٩٦٧ . وربما يرجع تعليق جانيت ولويس بخصوص الجملة المكررة إلى إهداء آخر كنت قد كتبته إلى ألكوريثا في كتاب سابق. ولكن بعد ٢٨ عاماً من هذه الواقعة وبعد أن حققت مائة عام من العزلة ما حققته وانطلقت إلى الآفاق وفي اجتماع شهده نفس المنزل علق أحد الحاضرين قائلاً إن الاهداء الموقع على تجربة الطباعة ليساوي ثروة ،فقامت جانيت وأخرجت النسخة وعرضتها على الجميع وهنا وقف الكوريثا وراح يخبط بقبضتيه على صدره ويصيح بصوت جهوري :

– افضل أن أموت قبل أن أبيع تلك الهدية الثمينة التي خصني بها صديق.

وبين تصفيق الجميع أخرجت نفس القلم الذي استخدمته في المرة السابقة والذي مازلت أحتفظ به حتى الآن وكتبت تحت الإهداء الأول الذي مضى عليه ٢٨ عاماً : تم التأكيد ١٩٨٥ووقعت مرة أخرى: جابو.

وهذه الوثيقة التي تتكون من ١٨٠ ورقة تحتوي على

١٠٢٦ تصويباً بخطي هي التي ستعرض في المزاد في برشلونة دون مشاركة مني أو فائدة تعود علي من ذلك . وأعتقد أنها عملية شرعية تماماً على الرغم من القلق الذي ساور البعض بسبب ضرورة الحصول على النسختين الأخريين في بوينوس أيرس بما فيهما من تصويبات. والواقع أن هاتين النسختين لا تحتويان أية تصويبات لأنني أرسلت التصويبات إلى دار النشر في قائمة مستقلة كتبت على الماكينة.

لقد توفي لويس ألكوريثا عام ١٩٩٢ في الواحد والستين من عمره في منزله بكورناباكا وتبعته جانيت بعد ذلك بست سنوات.وأكثر ما يعلق في ذهني من هذه الذكريات هو الظلم الذي استشعرته لأن جانيت ولويس عاشا سنواتهما الأخيرة وهما يمتلكان بعض الأوراق التي تساوي آلاف الدولارات ولكنهما رفضا بيعها لأنها هدية من أكثر صديق أحبهما في العالم.

عاشق غير ناضج

أول ما لفت انتباهي في وليام جفرسون كلينتون هو قوامه. والشيء الثاني هو تلك القدرة على الإغراء التي منذ التحية الأولى توحي بقدر من الثقة كشخص تعرفه منذ وقت طويل. أما الأمر الثالث فهو بريق الذكاء الذي يسمح للمرء بالحديث معه في أي موضوع مهما كان شائكاً لأنه دائماً سيكون لديه القدرة على ان يناقشك فيه. غير أن ثمة شخصاً لا يحبه حذرني قائلاً:" أخطر ما في هذه الميزات في كلينتون هو أنه يستخدمها لكي يوحي بأنه ليس هناك ما يهمه بقدر الأمر الذي تحدثه عنه".

لقد تعرفت على كلينتون أثناء عشاء أقامه الكاتب وليام ستيرون في منزله الصيفي بمارثاز فينيارد في شهر أغسطس من عام ١٩٩٤. وكان كلينتون قد صرح أثناء حملته الانتخابية الأولى أن كتابه المفضل هو مائة عام من العزلة. وقلت أنا ونشر ذلك على لساني في حينه إنني أرى أن هذه الجملة ما هي إلا طعم لاجتذاب الناخب اللاتيني . ولم ينس هو ذلك فكان

أول ما قاله لي بعد أن حياني في منزل بمارثاز فينيارد إن تصريحه السابق كان صادقاً حقاً.

كارلوس فوينتس وأنا كان لدينا من الأسباب ما جعلنا نفكر أننا في تلك الليلة نعيش فصلاً جميلاً من فصول الذكريات. لقد استحوذ علينا كلينتون منذ البداية بذلك الاهتمام والاحترام والحس الساخر الذي أولاه لكل كلمة من كلماتنا كأنما هي من الذهب المسحوق.وكانت موهبته تتلاءم مع مظهره.فقد كان شعره مقصوصاً كفرشاة الأسنان، جلده مصبوغاً بالحمرة وصحته وافرة كبحار على الأرض ، وكان يرتدي قميصاً رياضياً صبيانياً مطبوع على صدره مربع الكلمات المتقاطعة . كان في الثامنة والأربعين من عمره ، متبق فخور من جيل ٦٨ الذي دخن الماريجوانا وغنى أغاني البيتلز من الذاكرة وتظاهر في الشوارع محتجاً على حرب فيتنام.

* * *

بدأ العشاء في الثامنة وانتهى مع منتصف الليل مع أربعة عشر مدعواً حول المائدة. غير أن الحوار أخذ ينحصر شيئاً فشيئاً ليتحول إلى نوع من المبارزة الأدبية بين الرئيس والكتاب الثلاثة . الموضوع الأول كان الاجتماع الوشيك لقمة الأمريكتين . كان كلينتون يرغب في أن تعقد القمة في ميامي كما حدث في الواقع . غير أن كارلوس فوينتس كان يفكر في نيو أورليانز أو لوس أنجليس اللتين تتحليان بضمانات تاريخية

اكثر . وقد انبريت معه نداقع عن المدينتين حتى أصبح من الواضح أن الرئيس لن يغير فكرته لأنه كان يعول على ميامي في إعادة انتخابه. "فلتنس الأصوات ، سيدي الرئيس - قال له فوينتس - اخسر فلوريدا واكسب التاريخ". العبارة غيرت مسار الحديث.

عندما تحدثنا عن تهريب المخدرات أنصت الرئيس إلى رأيي بكل انتباه : "إن الثلاثين مليون مدمن مخدرات في الولايات المتحدة يظهرون أن المافيا الأمريكية هي أقوى بكثير من الكولومبية وتفوقها فساداً". وعند حديثي معه عن العلاقات مع كوبا بدا حتى أكثر انتباهاً: "لو ان فيدل وسيادتك تتمكنان من الجلوس للنقاش وجهاً لوجه فلن تبقى أية مشاكل معلقة". عندما قمنا بعمل مراجعة شكلية لأمريكا اللاتينية أدركنا أن اهتمامه بها يفوق كثيراً ما كنا نفترض ولكن كانت تنقصه المعلومات الأساسية .

ما إن بدأت الدردشة تنذر بالعودة إلى الصبغة الرسمية بشكل زائد عن الحد سألناه عن الفيلم الذي يفضله فأجاب بأنه القمر العالي "High Noon" لفرد زينمان الذي كان قد قلده وساما في لندن قبل اللقاء بأيام . وعندما سألناه عما كان يقرأ أطلق زفرة ارتياح وذكر كتاباً يتحدث حول الحروب الاقتصادية في المستقبل لم أتعرف على عنوانه ولا مؤلفه. "من الأفضل أن تقرأ الكيخوته، ستجد فيها كل شيء"- هكذا قلت.

والحقيقة ان هذا الكتاب الفريد لا يقرأ كثيراً كما يقال. بيد أن قليلين جداً هم من يعترفون بأنهم لم يقرأوه . كلينتون

أظهر من خلال عبارتين أو ثلاث أنه يعرفه جيداً. ثم سألنا بحماس عن الكتب المفضلة بالنسبة لنا . ستيرون أجاب بأن كتابه المفضل هو هاكلبري فين لمارك توين.أما أنا فكان من الممكن أن أختار الملك أوديب لسوفوكليس الذي يحتل مكان الصدارة بالنسبة لي منذ شرين عاماً غير انني فضلت الكونت دي مونت كريستو فقط لأسباب تقنية استغرقت في شرحها وقتاً طويلاً . بينما قال كلينتون إن كتابه المفضل هو تأملات ماركو أولريو. ولم يتردد كارلوس فوينتس في اختيار أبسالون ابسالون وهي بلا شك الرواية الرائعة لوليام فوكنر مع أن آخرين فضلوا ضوء أغسطس لأذواق شخصية. وحينئذ وتكريماً لفوكنر وقف كلينتون وراح يدور بخطوات واسعة حول المائدة ليتلو من الذاكرة مونولوج بنجي وهي أروع صفحات روايته "الصوت والغضب" وفي نفس الوقت أكثرها غموضا. فوكنر حملنا مرة أخرى للتساؤل حول التجانس الذي يجمع كتاب الكاريبي بنخبة كبار روائيي جنوب الولايات المتحدة . وبدا لنا الأمر شديد المنطقية إذا أخذنا في اعتبارنا أن الكاريبي ليس في الواقع إقليما جغرافيا يحدده البحر ، بل هو فضاء تاريخي وثقافي أرحب بكثير يمتد من شمال البرازيل وحتى حوض المسسيبي . ومن ثم فإن مارك توين ووليام فوكنر وجون شتاينبك وآخرين لهم الحق في أن يصبحوا كتابا كاريبيين مثلهم مثل خورخي امادو وديرك ولكوت . كلينتون الذي ولد ونشأ في أركنساس الجنوبية احتفى بهذه المصادفة وأعلن بسعادة انتماءه للكاريبي.

في ذلك الوقت كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة

وكان على أن يقاطع الحديث ليجيب نداءً عاجلاً من جيري أدمز الذي فوضه ليجمع الأموال ويروج لحملة في الولايات المتحدة لصالح السلام في أيرلندا الشمالية. وبدا أن هذه هي نهاية تاريخية لليلة لا تنسى. غير أن كارلوس فوينتس أجل هذا عندما سأل الرئيس عمن يعتبرهم أعدى أعدائه . كانت الإجابة فورية وقاسية : "عدوي الوحيد هو التطرف الديني لليمين "قال هذا وأنهى العشاء.

في المرات التالية التي التقيته فيها- سواء بصفة شخصية أو في لقاءات عامة – ترك لدى نفس الانطباع الأول :بل كلينتون كان على العكس تماماً من الفكرة التي لدينا نحن اللاتينيين عن رؤساء الولايات المتحدة.

* * *

والآن : هل يكون من العدل أن يسلب هذا النموذج النادر للنوع الإنساني قدره التاريخي فقط لأنه لم يجد مكاناً آمناً يمارس فيه حبه ؟ وهذه هي القضية : الرجل الأكثر سلطة على وجه الأرض لا يستطيع أن يحقق رغباته السرية بسبب جهاز أمني خفي يمنع أكثر من كونه يحمي . فنوافذ المكتب البيضاوي لا تسترها ستائر كما أن الحمام الملحق بحجرات الرئيس ليس له مزلاج . والزهرية التي تظهر خلف الرئيس في الصور المأخوذة في مكتبه اعتبرتها الصحافة مخبأ للميكرفونات للحصول على اسرار جلسات المحاكمة في صورة

وثائق رسمية. والأكثر إثارة للحزن في هذا الأمر هو ان الرئيس لم يرغب في شيء سوى ما يفعله عامة الرجال خفية عن زوجاتهم منذ بدء الخليقة. والحماقة أنه لم يمنع فقط من فعله بل سلب حتى حق إنكاره.

إن الأدب الخيالي ابتكره جوناس عندما أقنع زوجته بعد عودته للبيت متأخرا ثلاثة ايام ان السبب في ذلك هو أن الحوت كان قد التقمه . ولكي يدافع عن نفسه في وسط هذا الجدل أنكر كلينتون أمام المحكمة أنه كانت له أية علاقة جنسية بمونيكا لوينسكي ، وقد فعل ذلك بهامة مرفوعة كأي شخص غير مخلص يعتز بنفسه . وفي النهاية فإن مأساته الشخصية تلك هي مسألة عائلية بينه وبين هيلاري التي ساندته أمام العالم أجمع بكل كرامة. وبالتأكيد هناك فرق بين الكذب بغرض الخداع وبين إخفاء الحقائق للحفاظ على حياة الإنسان الخاصة.وبكامل الحق ليس هناك أحد مجبر على أن يشهد ضد نفسه . وحتى مع إصرار كلينتون على الإنكار فإنهم كانوا سيحاكمونه على أيه حال فهكذا تجري الأمور- ولكن الحنث باليمين دفاعاً عما في داخل النفس هو أكثر كرا مة بكثير من التبرؤ من الحب.

ولسوء حظه ، وبنفس الإصرار على إنكار الذنب اضطر للاعتراف به بعد ذلك وظل يعترف به في جميع الوسائل المسموعة والمرئية والمقروءة لدرجة الإذلال . وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه عاشق عير ناضج لن تدخل حياته السرية التاريخ لأنه أخطأ في الحب بل لأنه جعله أقل استمراراً

مما هو معتاد أن يكونه. والسخرية وصلت إلى القول بأنه يغرق في الجنس الشفهي أثناء حديث هاتفي مع سيناتور . وقد لجأ كلينتون لجميع الحيل الممكنة ليقابل هذا بالسخرية أيضاً ولكنه كلما حاول زاد من الدوافع التي يجدها المحققون ضده ذلك أن التزمت خطيئة شرهة لا تشبع بل تتغذى على فضلاتها.

لقد كانت تلك مؤامرة خبيثة حاكها مجموعة من المتعصبين لتدمير خصم سياسي لم يتحملوا نجاحه. وكانت الوسيله هي استخدام العدالة بشكل إجرامي من قبل محقق متشدد مثل كينث ستار التي كانت أسئلته شديدة الشهوانية والشراسة .

بيل كلينتون الذي قابلناه منذ أربعة شهور في حفل عشاء أقيم على شرف الرئيس أندريس باسترانا في البيت الأبيض كان رجلاً مختلفاً تماماً . لم يعد هو ذلك الجامعي الذي عرفته وحكمت عليه في مارثاز فينيارد ، بل كان شخصاً مداناً ضعيفاً وغير واثق لم ينجح حتى في أن يخفي بابتسامته الرسمية إرهاقاً من ذلك النوع الذي يدمر الطائرات: إنه تعب الحديد.

قبل هذا العشاء بأيام وأثناء عشاء آخر مع السيدة كاترين جراهام – المرأة الذهبية للواشنطن بوست – قال أحد الحاضرين إن الحكم على الأمور من وجهة نظر كلينتون يجعل الولايات المتحدة ما تزال بلد ناثانيل هوثورن. وفي تلك الليلة في البيت الأبيض فهمت الجملة تماماً . لقد كان الرجل يشير إلى الروائي الأمريكي الكبير من القرن الماضي والذي دأب في

أعماله على استنكار الأعمال المفزعة للتشدد في إنجلترا حيث قاموا بحرق ساحرات سالم أحياء . وكانت أشهر رواياته وهي الحرف القرمزي تتحدث عن مأساة هستر برم الفتاة الشابة المتزوجة والتي رزقت بطفل في السر من رجل غير زوجها.

كينث ستار هذا العصر أراد للرئيس أن يرتدي طوال حياته قميص المذنب وعليه حرف A بلون ورائحة الدم .هستر برم خصص لها ضابط يتبعها في مكان يقرع طبلاً كبيراً حتى يبتعد المارة عن طريقها . ولكن على المحقق ستار أن يتخلى عن أحلامه . فالوالد الخفي لطفل هستر كان هو الوزير الذي عذبها حتى الموت.

إن التكنيك والدرس الأخلاقي هنا هما ذاتهما جوهريا.ذلك أن أعداء كلينتون عندما لم ينجحوا في الحكم عليه بما يرغبون انهالوا عليه بتوجيه الاتهامات عن طريق أسئلة ملغمة أخذوا يدفعونه بها للوقوع في فخاخ جانبية. وهم بهذا أجبروه على اتهام نفسه على الملأ وإعلان ندمه حتى على أخطاء لم يرتكبها وكل هذا حي ومباشر عن طريق تكنولوجيا معلومات عالمية ليست سوى نسخة الألفية الثالثة من طبول هستر برم . وعندما نال منه إرهاق الحديد وصل كلينتون لحالة من الجنون دفعت به لأن يعاقب بالحديد والنار عدواً مختلقاً على بعد ألف وثلاثمائة وسبعة وتسعين ميلاً من البيت الأبيض فقط ليصرف الانتباه عن فضائحه الشخصية .

الكاتبة الكبيرة والحائزة على نوبل الأدب توني ماريسون أوجزت الموضوع في جملة عبقرية: "لقد عاملوه كأنه رئيس زنجي".

الكونت دي مونت كريستو

كتبت إليّ قارئة لطيفة الأسبوع الماضي بشأن مقالي حول الرئيس كلينتون وكانت تريد أن تعرف ما هي الأسباب التقنية – التي ذكرتها في المقال– والتي أسست عليها رأيي في أن تكون رواية "الكونت دي مونت كريستو" هي أحد الأعمال المفضلة بالنسبة لي. ويسعدني أن أجيبها على سؤالها بشرط واحد هو ألا تخبر أحداً بما سأقوله لها .

إن رواية "الكونت دى مونت كريستو" للفرنسي الكسندر دوماس لهى لغز حقيقي بالنسبة للقراء التواقين للمعرفة. إذ كيف تأتى لصاحبها الكسندر دوماس أن يجعل بطل روايته إدموندو دانتس ذلك البحار الجاهل الفقير ينجح فى الهروب من حصن منيع ثم يتحول الى أكثر الرجال ثراء وثقافة فى عصره؟!

لقد كان الحل الذي استخدمه دوماس رائعاً بالفعل. لقد دخل دانتس قلعة "إف" مداناً بدسيسة حاكها له ثلاثة من ألد أعدائه. وفي القلعة كان يوجد أصلا القس فاريا الذي كان في

الواقع الشخصية الملائمة التي يحتاجها الروائي فهو واحد من أكثر الرجال ثراء وثقافة وعلما في عصره. لم يكن من السهل التصديق أن يتحول إدموندو دانتس بطلاً مثاليا بينما ما يزال يتمتع بحريته ناهيك عن أصوله المتدنية. والأكثر صعوبة في التصديق أن ينجح في تحقيق ذلك داخل الزنزانة . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا هو ما حدث.

وبداية ، كيف استطاع دوماس أن يجعل سجينيه يتعايشان في السجن إذا كان كل منهما في زنزانة منفصلة وتحت نظام عزلة مطلق؟ لقد كانت القلعة "إف" من أمنع السجون الفرنسية وهو الأمر الذي يفترض أن الكاتب اختار متعمداً مدينة مرسيايا لتدور فيها أحداث روايته العظيمة حتى تكتمل العناصر التقنية للهروب المستحيل.

القس فاريا –الذي كان نزيل السجن لأسباب سياسية – كان من أكثر حكماء عصره تميزاً وتجديداً . بيد أنه لم يكن في العمر الذي يسمح له بالهرب . وعلى الرغم من ذلك فإنه حاول جاهدا عن طريق حفر خندق بأظافره. ذلك أن ما كان ينقصه لم يكن القوة بل الحسابات الصحيحة. فبعد سنوات طويلة من الشقاء لم يجد فاريا نفسه طليقا خارج السجن وإنما فى زنزانة إدموندو دانتس . عندئذ أدرك فاريا أنه لم يبق له من العمر ما يمكنه من القيام بمحاولة أخرى ولذلك فقد قرر أن يحل البحار الشاب القوى محله ليس فقط في عملية الهروب بل أيضا في التاريخ. لقد جعلته الفترة القاسية التي قضاها في السجن يدرك لب حكمته و جعلته يتأمل طبيعة الطبقة الأرستقراطية

الأوروبية المتهاوية. ما إن أصبح فاريا واثقا من عمله حتى علم دانتس طريقة الهرب. وعندما مات فاريا قام دانتس بإخراج جثته من الجوال الذي وضعت فيه لإلقائها في البحر ووضع نفسه محلها و هكذا فقد أصبح خارج السجن. وكان القس قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قد كشف لتلميذه عن سر كنز دفين في جزيرة مونت كريستو و بذلك فقد تحول البحار الفقير الى أغنى رجال العالم وأقواهم.

وهكذا فإن دوماس قد بدل شخصية بأخرى . ومن الواضح انه اختار أن يكون دانتس بحاراً حتى يتسنى له الخروج من الجوال باستخدام قطعة من الحجارة أخفاها في كعبه ثم السباحة حتى يصل إلى الشاطئ. وعندما حانت اللحظة التي خططا لها كان الشيء الوحيد الباقي من هويته أو شخصيته الأصلية هو فقط جسد السباح الماهر أما الباقي فقد كان الحكيم فاريا يقبع بداخله. في اليوم التالي للهروب عثر حرس السجن على جثة القس في الزنزانة الخاوية واكتشفوا النفق الذي يفضي إلى الزنزانة المجاورة والخاوية أيضاً . ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان. في تلك اللحظة كان قد وجد في العالم – ولدهشة الإنسانية – شخصية ثالثة لا يمكن تدميرها: الكونت دي مونت كريستو مالك لحكمة عالمية وثورة لا تحصى وتعطش للانتقام لم يهدأ حتى بعد أن عاقب دون هوادة ولا رحمة جميع أعدائه .

مغالطة لتشتيت الانتباه

الأستاذ جابريل جارثيا ماركيز:

لا يخفى على أحد أن أعمالك الأدبية مطعمة بقدر كبير من مهنتك كصحفي، وأنت نفسك ذكرت ذلك عدة مرات. وأحسب أن ذلك ما جعلك تصدر "قصة غريق" و"حكاية موت معلن" و"نبأ اختطاف". في هذا السياق ، هل من الممكن ان ننتظر منك حواراً قريباً ؟ ومع من سيكون؟

كاميلو جونثالث دياز–عن طريق الإنترنت

إن سؤالك يمكن صياغته بطريقة أخرى : وهي هل من الممكن أن ينتظر القراء مني كتاباً يكون في شكل حوار كما نشرت من قبل كتاباً في شكل قصة وحكاية ونبأ؟ وإجابتي المحددة هي :لا . وعلى الرغم من ذلك فإن الروح التي تستشعر من خلال رسالتك تجعلني أفكر أن ثمة أسئلة أخرى لديك لا أعرف لماذا لم تذكرها. ولكن حسناً دعني أقلها لك.

ولكي تكون الأمور منتظمة فإني أضيف أنني كتبت تسع روايات وثمان وثلاثين قصة قصيرة وأكثر من ألفي مقال صحفي وبضعة تقارير إخبارية وسيناريوهات للسينما. كتبت كل ذلك يوماً بعد يوم بأطراف أصابعي خلال أكثر من ستين عاماً من الوحدة مع اللذة البسيطة والخالصة والمجانية للحكي.باختصار فإن موهبتي وكفاءتي هما لقاص محض مثل قاصي القرى الذين لا يستطيعون أن يعيشوا دون أن يقصوا أي حكاية سواء كانت واقعية أم مختلقة فهذا لا يهم. فالواقع بالنسبة لنا ليس ما حدث بالفعل ولكنه كل ما يصلح للحكي . بيد أنني كلما ازدادت كتاباتي قلت قدرتي على التمييز بين أجناس الكتابة الصحفية. وأنا أستطيع أن أعدهم من الذاكرة – وسائل الصحافة فقط وليس كل وسائل الإعلام لأنها متعددة – ولكني دائماً ما أغفل عمداً الحوار كأحد هذه الأجناس لأنني غالباً أفصله على حدة فهو في رأيي مثل مزهرية الجدة التي تساوي ثروة ولكن لا أحد يعرف أين يضعها. ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن الحوار – ليس باعتباره جنساً من أجناس الكتابة بل كوسيلة – هو الجنية الأم التي يخرج من عباءتها جميع الأشكال الأخرى. وذلك الحوار لا يبدو لي جنساً صحفياً في حد ذاته مثله كالسيناريو في مجال السينما.

أحد الأمور الأخرى التي تثير حفيظتي بشأن الحوار هو السمعة التي اكتسبها كالمرأة سهلة المنال . ذلك أن كل من كان يظن أنه قادر على إجراء حوار . ولذلك فقد تحول الحوار لمكان عام للمبتدئين الذين يحملون أجهزة التسجيل ليصبحوا

صحفيين. والمتحدث في الحوار يحاول دائماً أن يستغله ليقول ما يحلو له . والأسوأ أن ذلك يكون تحت مسئولية المحاور نفسه الذي يجب أن يكون ماكراً ليعرف متى يكون ما يخبره به محدثه أمراً حقيقياً.إنها لعبة القط والفأر المتمثلة في أول مراحلها في الحوارات المباشرة التي تستغل غالباً للتعلم أو بمعنى أوضح لتعليم المبتدئين الذين أسوأ ما يجب عليهم ليصبحوا صحفيين هو ألا يخشوا أي شيء بل يذهبوا للحرب مسلحين بمدافعهم الرشاشة وليس الأسئلة ليضربوا كل من يطوله رصاصهم.

إن مشكلتي الأساسية كصحفي كانت هي نفسها مشكلتي ككاتب: أي أجناس الكتابة أفضل؟ وانتهيت في ذلك إلى اختيار التحقيق الصحفي الذي يبدو لي الأكثر طبيعية ونفعاً بالنسبة للعمل الصحفي . التحقيق الصحفي ليس فقط مساوياً للحياة بل هو أفضل من الحياة. إنه يصلح لأن يكون قصة قصيرة أو رواية مع الفارق الجوهري والذي لا يمكن تجاهله وهو أن الرواية أو القصة القصيرة يمكن أن تقبلا الخيال بلا حدود أما التحقيق الصحفي فيجب أن يكون واقعاً حتى آخر كلمة. مع أن أحداً لا يعرف ذلك أو يؤمن به. ونحن لن نتعلم أبداً كيف يمكن التمييز بين التحقيق الصحفي والحكاية والقصة القصيرة والرواية. وحتى لو رجعنا إلى القواميس فسنجد أنها هي أقل من ينجح في الوصول إلى ذلك. المشكلة في النهاية هي مشكلة وسائل وأساليب لأن جميع هذه الأشكال لها مستلزماتها من التحريات والشهادات والوثائق والاستطلاعات

والمستمدة جميعها من الإبداع المتدفق للحياة اليومية . وفي هذا المجال فإن الحوار الصحفي يتفوق ولكن ليس ذلك المنشور في شكله التقليدي بل الذي يستخدم كمصدر للإبداع وخبرات الآخرين. وبذلك يكون الحوار هو النوع الرائد إذ إنه المصدر الذي تتغذى منه باقي الأنواع.

وعلى الرغم من الاختلاف والاختلاط بين أنواع الكتابة الصحفية إلا أنها جميعاً تروم غاية واحدة : أن يعلم القارئ كل ما حدث حتى بأدق التفصيل . فهي تتقاسم جميعها إذاً مهمة التوصيل . والصعوبة التي يواجهها القائمون على عملية التوصيل ليست في أن رسالتهم هي تقديم الحقيقة بل المشكلة هي جعل القارئ يصدقهم.

لقد ذكرت ثلاثة عناوين مختلفة من أعمالي ولنراجعها واحداً تلو الآخر لتوضيح الخداع التقني الذي يتسبب في الخلط بين الأنواع الثلاثة.ولنبدأ أولا "بحكاية موت معلن" . العمل عبارة عن تحقيق صحفي أكثر منه قصة حول القتل العلني لأحد أصدقاء الطفولة على يد أخوي خطيبته السابقة التي تزوجت أعادها زوجها إلى العائلة لأنه لم يجدها عذراء.وقد اتهمت الفتاة صديقي بأنه الجاني عليها ولذلك فقد قام أخواها بتمزيقه بالطعنات في وضح النهار وفي ميدان عام. وقد انتظرت ثلاثين عاماً العام تلو الآخر حتى أكتب تلك المأساة – التي لم أكن شاهداً عليها – لأن أمي كانت قد رجتني ألا أكتبها لاعتبارات خاصة بعائلة القتيل. وعندما سمحت لي أخيراً كان الحادث حياً نابضاً في ذاكرتي حتى أنني لم أكن أحتاج

لإنعاشها ولم ألجأ لأي من الشهود وهم كثر . فالعمل إذاً ليس قصة كما وضعت خطأ في العنوان ولكنه واقعة تاريخية محمية من الفضول الشعبي عن طريق عدم ذكر الأماكن وتغيير الأسماء لكن مع الحفاظ بأمانة مطلقة على الأحداث والوقائع لدرجة تجعل من غير الممكن القول بأنه تحقيق صحفي بشكل رسمي ولكنه شكل من أشكاله.

أما عن "نبأ اختطاف" فإنها من واقع بنيتها خبر .وتتحدث عن خبر مفزع شاع وأصبح متداولاً في كولومبيا طيلة مائتين واثنين وستين يوماً حول سلسلة من حوادث الاختطاف لشخصيات مهمة كان يكمن ورائها هدف واحد : منع الجمعية التأسيسية من الموافقة على تسليم بعض المدانين الكولومبيين إلى الولايات المتحدة . وهذا العمل يمكن تصنيفه على أنه تحقيق صحفي خالص لأنه يقدم معلومات حقيقية ومثبتة .ولكن العنوان أيضاً يمكن أن يتلاءم لأن الخبر هنا واسع ومعقد بداية من أصوله الأولى وحتى آخر نتائجه. وأخيراً فإن "قصة غريق" هي أقرب من الحكاية لأنها عبارة عن النقل المنظم لتجربة شخصية واقعية تروى في بضمير المتكلم عن طريق الشخص الوحيد الذي عاشها. والواقع يمكن القول أيضاً إنها حوار طويل ومرتب وكامل قمت به وأنا اعلم أنه لن ينشر شيء على هذا النحو بل ستتم تسويته ليصبح هو الآخر تحقيقاً صحفياً. لم أتعجل شيئاً على الإطلاق بخصوص هذا العمل بل كنت كما لو أنني أتنزه في حديقة مليئة بالزهور وأمامي فرصة لأن أقطف أجملها. أقول هذا تكريماً لذكاء

وبطولة وشجاعة البطل الذي كان الغارق الأكثر شعبية في البلاد.وأثناء إجراء الحوار لم نكن نستخدم أجهزة التسجيل لأنها كانت شديدة الثقل كماكينة الخياطة وكان الشريط الممغنط يلتف حول نفسه كحلوى شعر الملك على الرغم من أننا أدركنا الآن أهمية تسجيل الحوار . أمر آخر كنت شديد الحرص عليه في الحوار وهو وجه الشخص الذي أجري معه الحوار والذي من الممكن أن يشي بالكثير من المعلومات أكثر من تلك التي يفصح عنها الصوت بل إنها أحياناً تكون على النقيض تماماً . ولذلك كنت أحرص على أن يكون معي دفتر صغير أدون فيه ملاحظاتي أثناء الحوار.

وفي النهاية فإنني أرى أن الصحافة ينبغي أن يكون لها قواعدها النحوية الخاصة وأخلاقياتها الخاصة وأن ينظر إليها كجنس أدبي أكبر في السن مثل الشعر والمسرح وغيرها. ولنر إذا كان الصحفيون الكولومبيون بعد هذا الاعتراف العادل سينجحون في تقديم التحقيق المنتظر منا حول كولومبيا التي كان يتغزل فيها الشعراء والتي حولناها إلى أخطر الأماكن في العالم.

هل كل قصة قصيرة قصة مملة؟

السيد جابرييل جارثيا ماركيز

بودى أن أسالك عن القصص القصيرة و ما هى بالنسبة لك؟ أحيانا أيفكر المرء أنها تمثل لك فترات من الراحة والاستجمام بين رواية والتالية لها .أو كما يحدث مع بعض الكتاب هي تدريب على جنس أدبي أعظم وهو الرواية؟ولن أخفي سؤالي الحقيقي أكثر من ذلك : هل من الممكن أن ينتظر قراؤك كتابا آخر من القصص القصيرة ؟

أدلبرتو بالدث

سان خوان – بورتوريكو

إن كتابة رواية هي مثل لصق قوالب الطوب أما كتابة قصة فتشبه صب الخرسانة . لا أعرف على وجه التحديد لمن هذه العبارة الصائبة . لقد سمعتها وكررتها كثيرا منذ وقت طويل دون أن يعلن أحد أنها تخصه إلى أن انتهى بي الأمر أن اعتقدت أنها من صياغتي . وهناك تشبيه آخر لذلك وان كان

يقل عن سابقه جمالا : القصة هي سهم في قلب الهدف أما الرواية فهي كصيد الأرانب .

على أي حال فهذا السؤال الموجه لي من القارئ لهو فرصة طيبة لنتحدث مرة أخرى حول جنسين أدبيين مختلفين ولكنهما على الرغم من ذلك متداخلان . وربما كان من أسباب ذلك النظرة المغلوطة التي تحسب الفرق وفقا لطول النص مع ملاحظة أن هناك أيضا قصة قصيرة وقصة طويلة . إن الفارق الذي يجب النظر إليه ينبغي أن يكون بين قصة وأخرى وليس بين قصة ورواية .

إن أقصر قصة عرفتها في حياتي هي للكاتب الجواتيمالى أوجوستو مونتيروسو وهى تقول: "عندما استيقظت من نومي كان الديناصور مايزال هنا ". وثمة قصة أخرى أعجبتني حتى أشعلت بداخلي نوعا من الحسد . إنها إحدى قصص ألف ليلة وليلة. وهى ليست بمتناول يدي الآن ولكنها تحكي عن الصياد الذي طلب من زوجة صياد آخر أن تعيره ثقالة الشبكة مع وعد منه أن يهديها أول سمكة يصطادها . وبالفعل نفذ وعده وأعطاها إياها . وعندما كانت تفتحها لتقوم بشيها وجدت بداخل معدتها ماسة بحجم ثمرة الجوز.

على الرغم من إعجابي بالقصة ذاتها لأنها حقا ممتعة لفرط بساطتها إلا أن ما يهمني الآن هو أنها تطرح أمامنا أحد ألغاز هذا الجنس الأدبي: لو لم تكن التى أعارت الصياد سيدة بل كان رجلا مثله لفقدت القصة سحرها تماما و لما وجدت من الأصل .. لماذا؟ من يعرف؟؟ إنه أحد أسرار جنس أدبي غامض لشدة جودته.

أما روايات ثريانتس فهي نموذج حقيقي على ذلك مع أن كثيرا منها ليست بروايات وإنما قصص. وعلى العكس مثلا فان جوزيف كونراد قد كتب " المبارزون" وهي قصة أيضا نموذجية في مائة وعشرين صفحة ولكن دائما ما يعتقد أنها رواية نظرا لطولها. وقد حولها المخرج ريدلى سكوت إلي فيلم دون أن يفقدها ذلك هويتها كقصة. ومن الحماقة هنا أن تسأل إن كان كونراد يهتم كثيرا بالخلط الذي وقع فيه عمله الأدبي.

إنّ التكثيف والوحدة الداخلية هما أهم ما بالقصة. ولكنهما ليسا بمثل هذه الأهمية فى الرواية التى لحسن الحظ لها وسائلها الأخرى فى الإقناع والتأثير. ولهذا فإن المرء عندما يقرأ قصة قصيرة يمكنه أن يتخيل ما كان قد حدث من قبل و ما سوف يحدث بعد ويظل كل هذا جزءاً من مادة وسحر ما قرأ. أما الرواية فإنها على العكس تحمل كل شيء بداخلها. ومن هنا يمكن القول إن الفارق هنا إذا يتعلق أساسا بالرأى الشخصى كجميع المسائل الجمالية الأخرى فى الحياة الواقعية.

من النماذج القائمة أيضا على التكثيف القصصي قصتان تعدان من درر هذا الجنس الأدبي: "قدم قرد" لويليم ويمارك جاكوبس و"الرجل في الشارع" لجورج سيمنون. فالرواية البوليسية في عالمها المنفصل القائم بذاته تستمر وتتعايش من تلقاء نفسها لأن غالبية مدمنى هذا النوع يهتمون بالحبكة أكثر من اهتمامهم باللغز. ما عدا الرائعة القديمة والتى لا مثيل لها لسوفوكليس "الملك أوديب" التي يكتشف التحري فيها أنه هو قاتل والده.

إن القصة تبدو لي الجنس الأدبى الطبيعى المتوافق مع الإنسانية وذلك لاندماجه التلقائي في الحياة اليومية. وربما كان أول من ابتدعه دون أن يعرف هو رجل الكهف الأول الذي خرج ذات يوم ليصطاد ولكنه لم يعد سوى في اليوم التالي بحجة أنه كان في صراع حتى الموت مع حيوان متوحش أجّنه الجوع . أما ما فعلته زوجته عندما علمت بأن العمل البطولى لزوجها ما هو إلا قصة من وحي خياله فيمكن اعتباره أول وربما أطول رواية في العصر الحجري.

لا أعرف ماذا أقول حول افتراضك أن القصة هي فترة استجمام بين روايتين. إن هذا من الممكن أن يكون نظرية قابلة للبحث بيد أنها لا علاقة لها على الإطلاق بتجاربي ككاتب. وأنا أتحسس طريقي في الظلام أجرؤ على التفكير في أن هناك عددا كبيرا من الكتاب حاولوا الجمع بين الجنسين الأدبيين في الوقت ذاته و لكنهم في مرات كثيرة لم يحالفهم نفس القدر من التوفيق في كليهما. ومن هذه الحالات مثلا الكاتب ويليام سومرست موم الذي نقلت معظم أعماله – كأعمال هيمنجواى – إلى السيلما. ومن بين قصصه العديدة التي لا يمكن أن أنساها قصة P & O وهي الحروف الأولى من شركة الملاحة PACIFIC & ORIENT وهي قصة درامية قاسية حول ذلك الثرى الإنجليزي الذي يموت بنوبة شديدة من الفواق في وسط المحيط الهندي.

إرنست هيمنجواى أيضا هو حالة مشابهة. فهو معروف فى السينما وبكتبه ولكن من الممكن أن يخلد في

تاريخ الأدب فقط من خلال بعض قصصه الرائدة. وإذا درست حياته ربما فكرت في أن موهبته الحقيقية كانت مخصصة للقصص القصيرة. وأفضل أعماله بالنسبة لي ليست من بين أطولها بل على العكس فإن اثنين منها يعدان من أقصرها وهما: {عصفور كناري للإهداء} و {قط تحت المطر} أما الثالث فهو عمل طويل هو {الحياة السعيدة القصيرة لفرانسيس ماكومبر}.

* * *

أما بالنسبة لافتراضك الأخر بأن القصة هي نوع من التدريب للإعداد لرواية فأعترف بأنني قد فعلت ذلك حقا. ولم يكن ذلك سينا لأتعلم و أعرف كيف أكتب رواية خريف البطريرك. كان ذهني لا يزال مكبلا بالصيغة التقليدية لمائة عام من العزلة والتي انكببت على العمل فيها دون توقف لمدة عامين متتاليين. كل ما كنت أحاول أن أكتبه في ذلك الوقت خرج مشابها و لم أنجح في التحرر و التقدم بعمل مختلف. وعلى هذا فإن ما كتب حول العالم الخالد للدكتاتور بالأسلوب التقليدي للكتب السابقة كان عبارة عن مائتي صفحة مملة وعديمة الجدوى بل وتصيب بعسر الهضم. وهكذا فقد قررت البحث عن أي مخاطرة تخرجني من فخ الأكاديمية حتى أستطيع أن أدعو القارئ لمغامرة جديدة.

اعتقدت أنني وجدت ضالتي في مجموعة من الأفكار

لقصص قصيرة كانت مؤجلة لدي. وانغمست دون أدنى قدر من الخجل في مجموعة من التجارب لأعثر على ما انشده لكتابي الجديد. كانت مجموعة من القصص التجريبية التي عملت فيها لمدة تزيد عن العام. وقد نشرت فيما بعد في كتاب مستقل بعنوان (ارنديرا الطيبة : بلاكامان بائع المعجزات الطيب ، الرحلة الأخيرة للمركب الخفي) والعنوان كله عبارة عن جملة واحدة بدون علامات ترقيم سوى الفواصل اللازمة فقط لالتقاط الأنفاس. وهكذا فقد عثرت على نواة خريف البطريرك والتي كانت كسلاطة الخضروات الروسية. إذ كانت عبارة عن مجموعة مأخوذة عن تجارب العديد من الكتاب – السيئين والجيدين – من القرون الماضية . فالعبارات التي كانت تتطلب الكثير من الصفحات أصبحت تتطلب صفحتين أو ثلاثا لتقول نفس المضمون مع بعض المشاغبات والانتهاكات الدائمة للقواعد الثابتة والنحو الأكاديمي.

وقد كان كتاب الإنقاذ هذا كارثة تجارية بحق. أذ أن الكثير من القراء المخلصين لمائة عام من العزلة شعروا بأنهم قد تعرضوا للنصب وطالبوا الباعة برد نقودهم إليهم . ومما زاد الطين بلة أن الطبعة الإسبانية كانت تحتوى على خطأ في التصنيع جعلها تتفكك في اليد بمجرد الإمساك بها حتى أن صديقا واساني ممازحا بقوله : "لقد قرأت كتابك صفحة بصفحة".

احتمل البعض استكمال القراءة بينما لم يقدر آخرون على تجاوز النصف ولكن فى النهاية بقى لي عدد كاف من

الأسرى ساعدني على الاستمرار في المهنة. واليوم أصبح هذا الكتاب هو أكثر أعمالي تعرضا للبحث والدراسة في الجامعات المختلفة و من الممكن للأجيال الجديدة أن تقرأه على أنه عودة لطرزان ذي المائتى عام. وإذا ما اعترض أحد وألقاه من النافذة فذلك ليس لأنه لا يعجبه بل لأنه لا يفهمه. وأحيانا لحسن الحظ يكون هناك من يلتقطه من الأرض!

ملحوظة: أما عن سؤالك الحقيقي- كما قلت - لا أعرف إذا كان في إمكان القراء الانتظار ولكني. أفكر بالفعل في نشر كتاب جديد من القصص القصيرة.ومن المفترض أن يشمل ثلاث قصص تقع كل منها في حوالى خمسين صفحة. ما زال ينقصني الانتهاء من الثالثة ثم تأتى عملية المراجعة . وحتى الآن لم أضع عنوانا له ولا أفكر في نشره قبل صدور الجزء الأول من مذكراتي. ومن المؤكد أني لن أتمكن من الانتهاء منه اليوم لانشغالي في الرد على هذه الأسئلة. فيا لها من مهمة شاقة . أليس كذلك؟

لغز رجلين يدعيان شافيز

عندما هبط كارلوس اندريس بيريث مساء من الطائرة التي كانت تقله قادماً من دافوس بسويسرا دهش لدى رؤيته الجنرال فرناندو انشوا انتيتشي وزير دفاعه في انتظاره. ماذا حدث؟ - ساله منزعجا - غير أن الوزير هدأ من روعه بأسباب بدت مقنعة حتى إن الرئيس توجه إلى قصر ميرافلورس بدلاً من المقر الرئاسي لينال قسطاً من النوم. وعندما كان الرئيس على وشك الاستغراق في النوم كان نفس الوزير هو من أيقظه ليخبره أن هناك انقلاباً عسكريا في ماراكاي . وكان كارلوس أندريس بيريث قد دخل قصر ميرافلورس لتوه عندما بدأت المدفعية تطلق أول قذائفها.

كان ذلك في الرابع من فبراير عام ١٩٩٢ . الكولونيل هوجو شافيز فرياس بهيئته الوقورة كأنما ينتمي لحقبة تاريخية ماضية هو من ينتزع الانقلاب من موقعه كقائد لحرس المتحف التاريخي في بلانيثيي . أدرك الرئيس أن الإنقاذ الوحيد الذي من الممكن أن يعول عليه لن يكون سوى التأييد الشعبي .

وعلـى هـذا فقـد توجـه إلـى استوديوهات التلفزيـون ليتحـد إلـى الشعب . بعـد ذلـك بحوالـي اثنتـي عشـر سـاعة فشـل الانقـلاب العسكري بعد أن أعلن شافيز عن استسلامه شريطة ان يسمح له هو أيضاً بالحديث إلـى الشـعب مـن خـلال التلفزيـون. وأقـر الكولونيل الشاب بقبعته التي تشبه غطـاء الـرأس الـذي يضعـه المظليون وكلماتـه التـي تثير الإعجـاب بمسئوليته عـن حركـة الانقـلاب. بيـد أن كلمتـه القصيرة تلـك كـانت بمثابـة انتصـار سياسي . قضى شافيز عامين في السجن حتى حصل على عفـو من الرئيس رافائيل كالديرا . وقد اعتبر الكثيرون مـن أنصـاره وعدد ليس بقليل من أعدائه أن خطبته عند الهزيمة كانت أولـى خطبه في الحملة الانتخابية التي حملته إلى الرئاسة بعد أقل مـن تسع سنوات.

قص لي الرئيـس شـافيز كـل هـذا فـي إحـدى طـائرات القـوات الجويـة الفنزويليـة التـي كـانت تقلنـا مـن هافانـا إلـى كاراكـاس بعـد أقـل مـن أسبوعين علـى توليـه السـلطة كرئيـس دستوري للبلاد عن طريق انتخـاب شـعبي.كنـا قـد تعارفنـا قبـل ثلاثة أيام في هافانا أثناء اجتماع ضم الرئيس كاسترو والرئيـس باسترانا.وكان أول ما لفت انتباهي فيـه هـو قـوة جسـده الناتجـة عن تكوين عسكري.كان يشعرك بمودة فورية وظرف فنزويلي بحت .حاولنا أن نلتقي مرة أخرى ولم يكن ذلك ممكناً لانشـغال كلينا. وهكذا توجهنا سوياً إلـى كاراكـاس لنتحـدث حـول حياتـه ومعجزاته في الطائرة.

* * *

كانت تجربة رائعة لمراسل صحفي متقاعد . وأثناء قيامه بحكي قصة حياته أخذت أكتشف شخصية لا تتفق إطلاقاً مع صورة هوجو شافيز المستبد التي تكونت لدينا بفعل وسائل الإعلام . كان هوجو شافيز آخر تماماً. ولكن من منهما كان هو الحقيقي ؟

كانت أقسى الانتقادات الموجهة إليه أثناء الحملة الانتخابية تتعلق بماضيه كمتآمر ومدبر انقلاب سابق. غير أن تاريخ فنزويلا حافل بأربعة على الأقل على ذات الشاكلة. بداية من رومولو بتانكورت الذي يعزى إليه بمناسبة او بدون مناسبة أنه أبو الديمقراطية في فنزويلا وهو الذي انقلب على ايزاييس مدينا . ومدينا هو بدوره رجل عسكري ديمقراطي حاول أن يطهر بلاده من آ ثار خوان بيثنتي جوميث . وكان هناك أيضاً الروائي رومولو جاييجوس الذي خلعه الجنرال ماركوس بيريث خيمينث وهو الذي ظل في الحكم طوال أحد عشر عاماً. وهذا الأخير تم خلعه بواسطة جيل كامل من الشباب الديمقراطيين استهل أطول فترة من الرؤساء المنتخبين.

وعلى الرغم من أن انقلاب فبراير هو الفشل الوحيد الذي واجهه الكولونيل هوجو شافيز فرياس إلا أنه لا ينظر إليه من هذا الجانب بل على العكس يراه بشكل إيجابي. إنها طريقته في فهم الحظ الطيب والذكاء والحدس والمكر وكل تلك الهبات السحرية التي تميزت بها أفعاله منذ جاء لهذا العالم في الثامن والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٤. فشافيز الكاثوليكي المؤمن يعزو كل ما يحدث له إلى العناية الإلهية التي تحوطه

منذ طفولته والتي ورثها عن جده لوالدته الكولونيل بدرو بيريث دلجادو أحد أبطاله المفضلين.

عاش والدا شافيز حياة صعبة على الكفاف براتبي معلمين للمرحلة الابتدائية. ومن هنا فقد تعين عليه أن يساعدهما منذ كان في التاسعة من عمره فعمل بائعاً للحلوى والمثلجات. وأحيانا كان يذهب لزيارة جدته لأمه في رستروخوس أو القابلة التي جاءت به للعالم هو و إخوته الأربعة . كانت والدته ترغب في أن يكون قساً ولكنه لم يصل سوى لخادم من خدام الكنيسة مهمته قرع الأجراس. وكان يفعل ذلك برقة حتى أن الناس جميعا أصبحوا يميزون أجراسه : "إنه هوجو الذي يقرع الأجراس" – هكذا كانوا يقولون . ووجد هوجو بين كتب والدته كتاباً جذبهالفصل الأول منه على الفور وكان بعنوان : "كيف تنتصر في الحياة ؟"

كان الكتاب في الواقع عبارة عن روشتة من الخيارات وقد جربها جميعها. فهو كرسام فاز في الثانية عشر من عمره بالجائزة الأولى في أحد المعارض الإقليمية وكان متأثراً بمايكل أنجلو ودافيد . وكموسيقي أصبح من الضروريات التي لا غنى عنها في جميع أعياد الميلاد والمناسبات مع فرقته في الصف الرابع وصوته الرائع .و فيما يتعلق بكرة السلة فقد وصل لأن أصبح مساكاً من الدرجة الأولى. أما الخيار العسكري فلم يكن مطروحا في القائمة ولم يجل حتى بخاطره حتى أخبروه أن الطريقة المثلى للوصول للصفوف الأمامية تكمن في الالتحاق بالأكاديمية العسكرية في باريناس . ويجب أن تكون هذه

معجزة أخرى من فعل العناية الإلهية لأن اليوم الذي التحق فيه على وجه التحديد بدأ تطبيق خطة أندريه بيو التي كانت تسمح للمتخرجين من المدارس العسكرية بالترقي حتى أرفع المستويات الأكاديمية.

ودرس هوجو العلوم السياسية والتاريخ والماركسية واللينينية . وكان مغرماً بدراسة حياة بوليفار وحفظ خطبه عن ظهر قلب. غير أن اول احتكاك حقيقي له مع السياسة كان مع موت الرئيس الشيلي الليندي في سبتمبر من عام ١٩٧٣.

بعد ذلك بقليل أوكل إليه قائد فرقته مهمة مراقبة أحد أبناء خوسيه بيثنتي رانجل وكان يعتقد أنه شيوعي : "انظر إلى تقلبات الحياة" – قال لي شافيز منفجراً في الضحك واردف : "إن والده الآن هو مستشاري " والمفارقة الأكبر هي أنه عندما تخرج تسلم شهادته من يد الرئيس الذي سيحاول هو بعد عشرين سنة خلعه والانقلاب عليه : كارلوس أندريس بيريث. وقد علقت قائلاً: " الأمر ليس كذلك فحسب بل إن سيادتك أوشكت ان تقتله" "لا، على الإطلاق" – قال معترضاً – "الفكرة كانت تشكيل جمعية دستورية ثم العودة للثكنات".

* * *

منذ اللحظة الأولى أدركت أنه قاصّ بالفطرة . إنه نتاج الثقافة الشعبية الفنزويلية المبدعة والثرية. وله قدرة كبيرة على التحكم في الوقت. كما يتمتع بذاكرة غير طبيعية تجعله

قادراً على تلاوة قصائد كاملة لنيرودا ووايتمان من الذاكرة وصفحات بأكملها لرومولو جاييجوس ..

في شبابه وبالصدفة اكتشف هوجو أن جده لم يكن قاتلاً كما اعتادت والدته أن تخبره بل كان محارباً أسطوريا من أوقات خوان بيثينتي جوميث. وبلغ حماس شافيز تجاه جده أن قرر أن يؤلف كتاباً لتخليد ذكراه. وأخذ الشاب يطوف الأرشيفات التاريخية والمكتبات العسكرية وجال بالإقليم قرية قرية حاملاً حقيبة مؤرخ ليجمع الشهادات حول جده من الباقين ممن عاصروه .

وفي أحد الأيام وأثناء عبوره الحدود دون أن ينتبه عن طريق جسر أراوكا قام قائد كولومبي بتفتيش حقيبته فعثر فيها على أغراض كانت كافية جداً لاتهامه بالتجسس : كان يحمل كاميرا ومسجلا ووثائق سرية وصوراً للإقليم وخريطة عسكرية ومسدسين . ولأنه متهم بالجاسوسية فإن وثائق إثبات الهوية التي كانت بحوزته من الممكن أن تكون مزيفة.

امتد النقاش ساعات طويلة في مكتب كانت الصورة الوحيد فيه لبوليفار يمتطي صهوة فرسه .

"لقد كنت في مأزق حقيقي لأنني كلما حاولت أن أشرح له زاد عدم فهمه لي " – قال الرئيس – حتى خطرت لي أخيراً عبارة الإنقاذ فقلت : "انظر أيها القائد كيف هي الحياة ! منذ أقل من قرن كنا ننتمي لنفس الجيش وهذا الذي ننظر إليه في الصورة كان رئيسنا نحن الاثنين . فكيف أكون جاسوساً بعد ذلك؟!" . تأثر القائد كثيراً وأخذ يتحدث بفخر عن أمجاد

كولومبيا الكبرى وانتهى الحال بالاثنين – شافيز والقائد – لأن يحتسيا البيرة في إحدى حانات أراوكا . وفي الصباح التالي استيقظ كلاهما بصداع رهيب وأعاد الكابتن لشافيز أغراضه وودعه بعناق حار في منتصف الجسر الدولي.

وواصل الرئيس حديثه لي قائلا: " في تلك الفترة بالذات خامرتني فكرة محددة بأن ثمة أمراً سيئاً يجري في فنزويلا ". كانوا قد أرسلوه إلى المنطقة الشرقية كقائد لفرقة من ثلاثة عشر ضابطاً وفريق من متخصصي الاتصالات للقضاء على آخر معاقل جماعات حرب العصابات . وفي ليلة مطيرة جاءه كولونيل على رأس دورية من الجنود ويصطحب معه مجموعة من السجناء زعم انهم ينتمون لجماعات حرب العصابات وانه قد قبض عليهم لتوه وطلب الكولونيل من شافيز أن يسمح لهم بالبقاء في المعسكر لقضاء الليل . وفي العاشرة مساء تقريباً وعندما كان شافيز يستعد للنوم سمع صرخات مكتومة في الحجرة المجاورة. "رأيت الجنود ينهالون ضرباً على السجناء بأحذية البيسبول بعد ان يلفوها في خرق من القماش حتى لا تترك آثاراً على الجسم ". – يروي الرئيس – وطلب من الكولونيل ان يسلمه السجناء ويرحل عن المعسكر على الفور لأنه لا يحب أبداً أن يتعرض أحد للتعذيب تحت إمرته. "في اليوم التالي هددوني بمحكمة عسكرية بتهمة العصيان ولكنهم اكتفوا بوضعي تحت الملاحظة لبعض الوقت.

بعد هذه الواقعة بأيام قلائل تعرض شافيز لتجربة أخرى فاقت السابقة . كان يشتري اللحم لمعسكره عندما هبطت

هليكوبتر عسكرية في الفناء حاملة مجموعة من الجنود الذين أصيبوا في مواجهات مع جماعات حرب العصابات . قام شافيز بحمل جندي مصاب بعدة أعيرة نارية على ذراعيه . "لا تتركني أموت أيها العريف "- قال له الجندي. واستطاع بصعوبة أن يضعه في إحدى العربات. ومات سبعة آخرون. في تلك الليلة جفاه النوم وراح يسأل نفسه قائلا: "لماذا أنا هنا ؟! فالفلاحون في الزي العسكري يعذبون هؤلاء الذين يرتدون زي حرب العصابات والفلاحون في زي حرب العصابات يقتلون الفلاحين من ذوى الملابس الخضراء . وهكذا عندما تنتهي الحرب لن يكون هناك أي مبرر لإطلاق طلقة واحدة على أي كان.واختتم الرئيس حديثه في الطائرة بعبارة :" وهكذا بدأت أول صراع وجودي بالنسبة لي".

في اليوم التالي استيقظ هوجو شافيز يسيطر عليه إحساس يقيني بأن المصير المقدر له هو أن ينتزع حركة. وقد فعل ذلك حقاً وهو في الثالثة والعشرين من عمره تحت اسم واضح: الجيش البوليفاري لشعب فنزويلا. كان أعضاؤه المؤسسون خمسة من الجنود بالإضافة له وهو برتبة ملازم . "ولكن بأي هدف؟" – سألته – وأجابني بصراحة شديدة: "بهدف أن نكون على استعداد إذا ما حدث شيء " . بعد ذلك بعام وعندما أصبح ضابطاً في الكتيبة المدرعة بماراكاي بدأ يتآمر بشكل موسع .بيد أنه أوضح لي أنه يستخدم كلمة التآمر فقط بمعني استعاري للدلالة على استنفار الهمم للقيام بمهمة جماعية.

كان هذا هو الوضع في السابع عشر من ديسمبر عام ١٩٨٢ عندما حدثت واقعة غير متوقعة يعتبرها شافيز من الأمور الحاسمة في حياته. كان قد صار نقيباً في الكتيبة الثانية لسلاح المظلات ومساعد ضابط في المخابرات . ودون أن يخطر بباله اختاره قائد الكتيبة وكلفه بإلقاء خطبة أمام ما يقرب من مائتين من الضباط والجنود.

في الواحدة والنصف تماماً تجمعت الكتيبة في ملعب كرة القدم. وبدأ مسئول المراسم يعلن عن الخطبة . "ولكن أين هي الخطبة"- هكذا سأله القائد عندما شاهده يعتلي المنصة دون أن يحمل معه أية أوراق فأجابه:" ليس معي خطبة مكتوبة" . وبدأ يرتجل الخطبة . وكانت كلمة مقتضبة مستوحاة من بوليفار ومارتي لكنها كانت ممتزجة بتجارب شخصية حول الموقف الظالم والمكبوت الذي تعانيه أمريكا اللاتينية بعد مائتي عام من استقلالها.استمع إليه الجنود – من كتيبته ومن غيرها – في لا مبالاة وكان منهم النقيبان فيليب أكوستا وخيسوس اوردانيتا المتعاطفين مع حركته.بعد أن انتهي استدعاه القائد وقال له بضيق: "شافيز أنت تبدو كرجل سياسة" . "مفهوم " – أجاب شافيز.

فيليب أكوستا الذي كان يبلغ من الطول مترين وقف أمام القائد وقال : " أنت مخطئ سيدي القائد . إن شافيز ليس سياسياً على الإطلاق .إنه نقيب ممن ينتمون لهذا العصر وعندما تستمعون إلى ما قاله في خطبته فسوف تبولون في سراويلكم ". وعندئذ قام القائد الكولونيل مانريكي بجمع الكتيبة

في حالة انتباه وقال : " أحب ان تعرفوا جميعاً أن ما قاله النقيب شافيز كان بتفويض مني وأنني أنا من أعطيته الأمر بإلقاء هذه الكلمة . وكل ما قاله – على الرغم من أنه ليس مكتوباً – إلا أنه سبق أن ألقاه عليَّ بالأمس ". وتوقف القائد قليلاً ثم اختتم حديثه بأمر حاسم "أي مما قيل لا يجب أن يخرج من هنا".

بعد انتهاء الاحتفال خرج شافيز يمتطي فرسه مع فيليب أكوستا وخيسوس أوردانيتا ووصلوا حتى سامان دي جيري على بعد عشرة كيلومترات . وهناك أعادوا القسم المقدس لسيمون دي بوليفار في جبل ابنتينو . "لقد أحدثت تغييراً واضحاً في النهاية " – قال لي الرئيس – " فبدلاً من أن نقول "عندما نحطم الأغلال التي تكبلنا بفعل سيطرة الحكم الإسباني، قلنا : حتى نحطم الأغلال التي تكبلنا وتكبل الشعب بفعل سيطرة أصحاب السلطة" . ومنذ ذلك الحين أصبح على جميع الضباط الذين يلتحقون بالحركة السرية أن يؤدوا القسم . وكانت المرة الأخيرة أثناء الحملة الانتخابية أمام مائة ألف شخص. وطوال سنوات تعددت الاجتماعات السرية التي كانت تتم مع ممثلين عسكريين من جميع أنحاء البلاد . وقال لي شافيز : "خلال يومين عقدنا العديد من الاجتماعات في أماكن خفية ودرسنا موقف البلاد وحللناه وقمنا بعمل اتصالات مع جماعات مدنية صديقة . وفي خلال عشر سنوات عقدنا خمسة مؤتمرات دون أن يكتشفنا أحد".

* * *

عندما بلغنا هذا الموضع من الحوار ضحك الرئيس بخبث وقال: " حسناً ، لقد قلنا دائماً إن مؤسسي الحركة كانوا ثلاثة . ولكن في الواقع كان هناك شخص رابع أخفينا هويته دوما لحمايته ولهذا فلم يكتشف في الرابع من فبراير بل ظل نشطاً في الجيش حتى وصل إلى رتبة كولونيل . ولكن بما أننا في عام ١٩٩٩ فقد أصبح في الإمكان الكشف عن هذا الشخص الرابع وهو موجود معنا على متن هذه الطائرة. وأشار الرئيس إلى رجل يجلس على مقعد بعيد وقال : "إنه الكولونيل بادوبيا".

واتفاقاً مع فكرة القائد شافيز حول حياته فإن الحادث المصيري فيها هو الثورة الشعبية في كاراكاس . اعتاد أن يكرر : "قال نابليون إن المعركة تحدد نتيجتها في لحظة إلهام تنتاب المخطط" وانطلاقاً من هذه الفكرة طور شافيز ثلاثة مفاهيم : أولها هو الساعة التاريخية وثانياً الدقيقة الاستراتيجية وأخيراً اللحظة التكتيكية . "كنا قلقين لأننا لم نرغب في أن نطرد من الجيش . كنا قد كونا حركة ولكن لم ليس لدينا فكرة واضحة عن الهدف" والمأساة أن ما كان من المقرر أن يحدث قد حدث ولم يكونوا مستعدين بعد . "أعني " – اختتم شافيز حديثه : " أن الدقيقة الاستراتيجية قد فاجأتنا ". وشافيز يشير بذلك إلى الثورة الشعبية التي جرت في السابع والعشرين من فبراير عام ١٩٨٩ والتي تسمى الكراكاتو. وكان شافيز من أكثر من أصابتهم الدهشة . كان كارلوس اندريس بيريث قد تولى الرئاسة لتوه بعدد وفير من الأصوات. وبعد عشرين يوماً حدث أمر خطير لا يصدق. "كنت ذاهباً إلى الجامعة لأني كنت أعد الدراسات

العليا. وفي ليلة السابع والعشرين من يناير مررت بقاعدة تيونا لالتقي بصديق لكي يمدني ببعض البنزين حتى أتمكن من الوصول للمنزل" - واصل الرئيس الحكي قبل دقائق قليلة من هبوط الطائرة في كاراكاس - "عندئذ رأيت انهم كانوا يخرجون القوات فسألت كولونيلاً : إلى أين سيذهب كل هؤلاء الجنود؟ ولماذا الاستعانة بالإداريين غير المدربين على القتال فما بالك بالقتال داخل المدن؟ كانوا مجرد مجندين مرعوبين من البنادق التي يحملونها هم أنفسهم . وهنا سألت الكولونيل : إلى أين يذهب هؤلاء ؟ فأجابني : إلى الشارع ، إلى الشارع. لقد كانت الأوامر الصادرة لهم على هذا النحو : يجب إيقاف الشغب بأية طريقة كانت . يا إلهي ولكن أية أوامر هذه !! فقال لي الكولونيل : حسناً شافيز ، الأوامر هي أن يتم إيقاف الشغب بأية طريقة كانت. ولكن سيدي الكولونيل بوسعك أن تتخيل ما يمكن أن يحدث. فأجابني: حسناً شافيز، هذه هي الأوامر وليس بالإمكان فعل أي شيء . وليحدث ما يريد الله له أن يحدث".

قال لي شافيز أيضاً إنه كان في تلك الليلة يعاني ارتفاعاً كبيراً في الحرارة بسبب إصابته بالحصبة وعندما ذهب ليدير سيارته شاهد جندياً ضئيلاً يركض وقد سقطت خوذته وتدلت بندقيته وبعثرت مخلته . "حينئذ توقفت وناديته . وصعد هو إلى السيارة وقد اعترته حالة من العصبية الشديدة واغرقه العرق . كان فتى في الثامنة عشرة من عمره وسألته: حسناً إلى أين انت ذاهب تركض هكذا؟ فأجاب :لقد تركت فصيلتي وهذا هو قائد فصيلتي هناك في تلك الساحة .

اصحبني معك سيدي ، اصحبني معك . وهنا توجهت إلى الشاحنة وسألت القائد : إلى أين تذهبون ؟ فقال : أنا لا أعلم أي شيء.فمن بوسعه أن يعلم ، لك أن تتخيل ". استنشق شافيز بعض الهواء وكان يكاد يصرخ مختنقاً من جراء ضيق تلك الليلة . وأضاف : " أنت تعرف . إنهم يأتون بالجنود ويدفعون بهم إلى الشارع مرعوبين ببنادق في أيديهم وخمسمائة خرطوش فيستهلكونها جميعها . يكتسحون الشوارع والقرى. لقد كانت كارثة. وكان الأمر كذلك بالفعل : آلاف من القتلى من بينهم فيليب أكوستا. وحدثتني غريزتي بأنهم أصدروا الأوامر بقتله.لقد كانت تلك هي اللحظة التي ننتظرها لنتحرك . " ومنذ تلك اللحظة بالفعل بدأ تشكيل الانقلاب الذي مني بالفشل بعد ذلك بثلاث سنوات.

* * *

هبطت الطائرة في كاراكاس في الثالثة صباحاً.وأبصرت من النوافذ أضواء المدينة التي تنسى والتي عشت فيها ثلاث سنوات حاسمة في تاريخ فنزويلا وكانت كذلك أيضاً في حياتي. ودعني الرئيس بعناق كاريبي ووجه إليّ دعوة رقيقة : "سنلتقي هنا في الثاني من فبراير". وبينما هو يبتعد في وسط بطانته من العسكريين المزدانين بالأوسمة وأصدقاء الأيام الخالية ساورني إحساس بالدهشة لأنني كنت مسافراً وأتحدث وأتحاور مع رجلين متناقضين. أحدهما منحه حظه الطيب فرصة إنقاذ بلاده. والآخر رجل متباه يمكن أن يضاف إلى التاريخ كديكتاتور آخر.

شاكيرا

عادت شاكيرا من ميامي إلى بوينوس أيرس في الأول من فبراير يلاحقها صحفي أراد أن فقط أن يوجه إليها ولو عبر الهاتف سؤالاً واحداً لأحد برامج الراديو. ولأسباب متعددة – ولكنها طبيعية بالنسبة لطبيعة عمل كل منهما – لم يتمكن من الوصول إليها طوال الأيام السبعة والعشرين التالية حتى فقد أثرها تماماً في الأسبوع الأول من شهر مارس في إسبانيا. الشيء الوحيد الذي بقي له عندئذ كان موضوع وعنوان التحقيق الصحفي الذي كان يعده: "ماذا تفعل شاكيرا عندما لا تقابل أحداً؟ " شاكيرا قالت وهي تكاد تموت ضحكاً وتمسك دفتر المواعيد في يدها : أواصل الحياة.

كانت قد وصلت إلى بوينوس أيرس ظهيرة الثلاثاء الأول من مارس. وظلت تعمل حتى منتصف الليل دون أن تجد حتى الوقت لتحتفل بعيد ميلادها الثاني والعشرين. الأربعاء عادت إلى ميامي حيث عقدت جلسة طويلة لاستعراض الصور الفوتوغرافية الخاصة بالدعاية كما قضت وقتاً طويلاً في

تسجيل النسخة الإنجليزية من شريطها الجديد . في يوم الجمعة واصلت التسجيل من الساعة الثانية مساء وحتى صباح السبت ثم نامت ثلاث ساعات وقامت لتواصل التسجيل حتى الثالثة مساء . في تلك الليلة تمكنت من النوم بضع ساعات ثم استيقظت مبكرة صباح الأحد لتسافر إلى ليما. وهناك وفي منتصف يوم الاثنين سجلت برنامجاً تلفزيونياً ، ثم قدمت عرضاً على الهواء وشاركت في الساعة الرابعة في برنامج تجاري وتوجهت لتحضر إحدى حفلات الدعاية وظلت بها حتى الفجر.

في اليوم التالي التاسع من فبراير أجري معها أحد عشر لقاء بين صحفي وتلفزيوني وإذاعي مدة كل منها نصف ساعة. واستمر ذلك من العاشرة صباحاً وحتى الخامسة مساء مع فترة توقف لم تزد عن الساعة لتناول الغداء . كان ينبغي أن تعود بشكل عاجل إلى ميامي ولكن كان عليها أيضاً أن تتوقف لبعض الوقت في بوجوتا لتقدم التعازي والمواساة إلى ضحايا زلزال أرمينيا . في تلك الليلة لحقت بآخر طائرة متجهة إلى ميامي حيث مكثت فيها أربعة أيام ثم غادرتها بسبب ارتباطات في إسبانيا وباريس . استطاعت أيضا أن تستقطع بعض الوقت لتعمل مع المطربة جلوريا استيفان في ترجمة اسطواناتها إلى الانجليزية واستمر العمل من بعد الغداء يوم السبت وحتى الرابعة والنصف فجر الأحد . عادت شاكيرا إلى منزلها مع أول أضواء النهار حيث تناولت فنجاناً من القهوة وكسرة خبز واستلقت لتنام بما كان عليها من ملابس. بعد ساعة ونصف

أيقظوها لسلسلة من الحوارات الإذاعية كانت مرتبطة بها مسبقاً.يوم الثلاثاء السادس عشر من فبراير كانت شاكيرا في كوستا ريكا لتقدم عرضاً حياً على الهواء . وفي الخميس شدت الرحال إلى ميامي ثم كاراكاس حيث شاركت في برنامج "يوم سبت مدهش" . ولم تكد تنعم بالنوم فقد كان عليها أن تعود من فنزويلا إلى لوس أنجليس لتحضر حفل تسليم جوائز جرامي على أمل أن تكون أحد الحاصلين عليها غير أن سيطرة الأمريكيين على الجوائز حالت دون ذلك. لم يثبط ذلك من عزيمتها حيث سافرت إلى إسبانيا في رحلة عمل من ٢٥ وحتى ٢٨ فبراير. في الأول من مارس عندما تمكنت أخيراً من أن تنام ليلة كاملة في أحد فنادق مدريد كانت قد طارت تقريباً كأنها مضيفة محترفة أكثر من أربعين ألف كيلومتر في شهر.

* * *

أما الالتزامات التي كانت تقع على كاهل شاكيرا على الأرض فلم تكن أقل ألماً . بين موسيقيين ومصورين وعازفين ومهندسي صوت ، فالفريق الذي يسافر معها يشبه فرقة قتالية كاملة . أما هي فتهتم بكل فرد من هؤلاء . وعلى الرغم من أنها لا تجيد قراءة النوتة الموسيقية إلا أنها في البروفات تنتبه لكل آلة بحس نقدي حاد وأذن موسيقية ممتازة يسمحان لها بمقاطعة بروفة ما لإعادة تنسيق ما يعزفه الموسيقيون مع

النوتة. وهي لا تتعاون معهم في ما يختص بالعمل فحسب بل تهتم بظروف كل فرد. وقليلة هي المرات التي سمحت فيها بظهور الإرهاق عليها ولكن لا تترك الأمر يخدعك.فطوال سلسلة من الحفلات بلغت أربعين حفلاً أحيتها في الأرجنتين لم يظهر عليها أدق أمارات التعب. ولكن في الحفلات الأخيرة كان من الضروري أن ينتظرها شخص ما في كواليس المسرح حتى يحملها إلى السيارة. وفي بعض الأحيان كانت تصاب بنوبات تسارع في دقات القلب أو التهابات في القولون أو حساسية في الجلد. هذا الموقف تفاقم مع الاستعدادات العسيرة لإصدار النسخة الإنجليزية من ألبوم "أين هم اللصوص؟ " في الولايات المتحدة بالتعاون المثمر مع إمليو استيفان وزوجته جلوريا وهما المسئولان حالياً عن إنتاج جميع أعمالها. كان هذا أحد أشد الضغوط التي عانتها شاكيرا في حياتها . فقد كانت تتحدث الإنجليزية الدارجة ولكن كان عليها أن تخضع لتدريبات شاقة حتى تحسن لهجتها. وقد سيطر هذا الأمر على تفكيرها لدرجه أنها كانت تتكلم أثناء النوم. وقد عانت شاكيرا عشية العرض الأول نوبة من الحمى طوال الليل ولم تحظ بالنوم سوى ساعة : "كانت تلك أشق لحظات حياتي ، لقد قضيت الليل كله أبكي وأفكر بأني لن انجح".

ولكن ، ماذا يثير العجب في هذا؟ فشاكيرا فيما يبدو قد نسيت أن هذا القلق الجامح ولد معها ويشاء الله أن يظل يلازمها حتى شيخوختها. فهي الابنة الوحيدة لصائغ شهير في برانيكا : السيد وليام مبارك وزوجته السيدة نديا ريبول . وهي عائلة من

أصول عربية حظيت بالكثير من الفنانين والأدباء. إن النضج المبكر لشاكيرا وذكاءها الخلاق وإرادتها الفولاذية إضافة إلى النشأة في مدينة عرفت بقدرتها عل تقديم المواهب الفنية كانت جميعها بذور مصير نادر التكرار.كانت سنوات عمرها الأولى عبارة عن قفزات متتالية . فتاريخها يؤكد أنها حفظت الحروف الهجائية كاملة وعمرها ١٧ شهراً وفي سن الثالثة كانت تغني الأرقام . أما في الرابعة فقد رقصت رقصة البطن دون معلم في إحدى مدارس الراهبات. في بارانكيا كان أحد المسئولين عنها في الثلاثينيات يرغب في تشييد تمثال للأسطورة شيرلي تمبل. مع بلوغ السادسة لحنت شاكيرا أولى أغانيها. وبين الثامنة والعاشرة من عمرها كتبت أول أبياتها الشعرية وأولى أغانيها شعراً وموسيقى .. وفي نفس الفترة من عمرها تقريباً وقعت أول عقد في حياتها للترفيه عن عمال مناجم الفحم في "ثريخزن" بمرتفعات "جواخيرا" . ولم تكن قد تخرجت بعد عندما تعاقدت معها إحدى شركات الاسطوانات على أول اسطوانة لها . "طالما كنت على اقتناع بقدرتي على الابداع – تقول شاكيرا – كنت أنظم قصائد شعرية في الحي وبدأت أكتب قصصاً قصيرة وكنت أحرز درجات ممتازة في جميع المواد ماعدا الرياضيات".

كان أكثر ما يثير مللها لدرجة الموت هو أن يجبرها أصدقاء والديها على الغناء أثناء الزيارات. "كنت أفضل حشداً من ثلاثة آلاف فرد يسمعني على أن أغني وحدي لخمسة أشخاص ومعي جيتار". وبوجهها الطفولي الرائع ورقتها

الخادعة كانت شاكيرا واثقة دائماً من أنها ستصبح شخصية عامة ذات شهرة عالمية. لم تكن تعرف في أي أنواع الفن أو في أي مكان سيتحقق ذلك ولكن لم يتسرب إلى نفسها أي قدر من الشك في ذلك كما لو كانت منذورة لمصير رسول .

اليوم تحقق الحلم . وموسيقى شاكيرا اكتسبت بصمة شخصية لا يضاهيها فيها أحد .. ولا يستطيع أحد أن يغني أو يرقص على موسيقى شاكيرا بمثل هذا الإحساس البريء الذي يبدو كأنه من اختراعها.قد يقول المرء ببساطة : "إذا لم أغن فسأموت" . ولكن الأمر المؤكد مع شاكيرا هو أنها إذا لم تغن فلن تعيش . إن أكثر ما يحيطها بغلالة من سلام الروح هي لحظات الوحدة وسط تجمعات البشر. وهي عندما تصعد إلى خشبة المسرح لا ينتابها الخوف المرتبط بهذا على الإطلاق وإنما تساورها المخاوف من ألا تكون يوماً على هذا المسرح: "أشعر – توضح – أني أسد في الغابة" . ذلك أن المسرح هو أحد الأماكن القليلة التي تستطيع فيها أن تعبر عن من هي ومن كانت وماذا ستكون حتى الموت.

إن هذا هو النموذج الأمثل لقوة أرضية في خدمة سحر. إن أغلب المطربين يفضلون تركيز الأضواء في مواجهتهم حتى لا يواجهوا الجمهور ولكن شاكيرا اختارت العكس . لقد طلبت من فنيي الإضاءة ألا يركزوا الأضواء على وجهها بل على الجمهور حتى تتمكن من رؤيتهم والعيش معهم أثناء الغناء . "الاتصال يجب أن يكون كاملاً" . إن جموع البشر غير معلومي الأسماء والاتجاهات تكشف حينئذ عن نوع من

المشاركة القلبية صاغتها الفنانة عن طريق أدائها المتوافق مع إيقاعات إلهامها.تقول شاكيرا : " أحب أن أرى عيون الناس وأنا أغني لهم". وبعض الوجوه التي لم تراها قط سوى بين الجمهور تتذكرها دائماً فيما بعد كوجوه أصدقاء حميمين . ذات مرة تعرفت فجأة على وجه شخص كان قد مات منذ عدة سنوات والأكثر أنها شعرت كأنما تعرفت عليه في حياة أخرى . "لقد غنيت له طوال الليلة". إنها معجزات سرية يصنعها المجد – وفي كثير من الأحيان الكوارث – لكبار الفنانين.

* * *

والظاهرة الأكثر ارتباطاً بحياة شاكيرا هي تأثيرها الهائل على جموع الأطفال . فعندما ذهبت إلى بيس ديسكالثوس أراد مسئولو الدعاية أن يروجوا للحفل في أوساط الحفلات الشعبية للكاريبي. ولكن كان عليهم أن يغيروا فكرتهم لأن جمهور الشباب اندفع للمسرح للرقص والغناء مع شاكيرا وكان يلزم ضعف المساحة المتوفرة لتكفي الباقي. إنها الآن ظاهرة جديدة بأن تدرس في الجامعة . ذلك أن جميع المدارس الابتدائية من جميع المستويات الاجتماعية قد تحولت إلى حقل استنساخ لشاكيرا . فالفتيات يرتدين ملابسهن مثل شاكيرا ويتحدثن بطريقة شاكيرا ويغنين كشاكيرا. والأكثر إثارة هو ما يحدث في أوساط الأطفال في ذوي الست سنوات . والشرائط المقلدة لشاكيرا هي العملة الرائجة للمبادلة بين الفتيات ويباع

الاثنان منها بخمسة بيزو أمام أبواب المدارس. وهناك أيضاً حلي الشعر والأسوار والأقراط وجميعها تباع في الأسواق مع صبغات الشعر لتغيير لون جدائل الشعر وفقاً للموضة. والبطلة في أي فصل هي من تستطيع الحصول على شريط شاكيرا أولاً. أما المجموعات الدراسية فهي تتجمع في منزل أحد أعضاء المجموعة وبعد مراجعة سريعة للدروس والواجبات يبدأ الحفل. وأعياد الميلاد تحولت إلى احتفالات شاكيرا فلا يغني ولا يرقص إلا مع أغاني شاكيرا. وفي أكثر هذه الاحتفالات وقاراً – وهي قليلة – لا تتم دعوة الرجال.

من الصعب حقاً الوصول لما حققته شاكيرا اليوم في مشوارها الفني ليس فقط بسبب ذكائها ودقة حكمها بل بسبب هذا النضج الذي قلما تجده فيمن هم في عمرها. قد يتطلب الأمر جهداً جهيداً لأن تفهم مثل هذه القوة الإبداعية التي تماشى مع جدائل شعرها التي كانت سوداء بالمس ، حمراء اليوم، خضراء غداً.

والعام القادم سيكون عام شاكيرا إذ ستخطو من خلال الشرائط والعروض الحية إلى أسواق جديدة في أوروبا والولايات المتحدة وآسيا وأفريقيا حيث ينتظرها ملايين المعجبين الذين يغنون أغانيها بلغات مختلفة. كما ستحصل على مزيد من الجوائز والتذكارات والشهادات بشكل يفوق المحنكين. وشاكيرا هي تماماً ما أرادته لنفسها: ذكية ، واثقة قوية مراوغة. إنها فتاة من بارانكيا تشتاق من فوق سحب الأوليمب إلى منزل بسقف مرتفع لم تتجح في شرائه على البحر مع

أسماك البوري وأعشاب اليوكا وفرسين وقدر كبير من السكينة. أما عن الكتب فهي تشتري الكثير منها وتداعبها ولكن ليس لديها أي وقت لقراءتها . وهي تشعر بالحنين تجاه الأصدقاء الذين تتركهم خلال وداعها المتعجل في المطارات وهي تعرف أنه سيكون من الصعب العودة لرؤيتهم مرة أخرى.

وعن الأموال التي ربحتها تقول شاكيرا : "لدي أقل مما يقال عني وأكثر مما أقوله عن نفسي". ومكانها المفضل للاستماع إلى الموسيقى هو السيارة بصوت عال ولكن دون إزعاج أحد. "إنه المكان النموذجي للحديث مع الله والحديث مع نفسي ومحاولة الفهم". وتعترف شاكيرا بأنها تكره التلفزيون . وتقول عنه إن أكبر مظاهر التناقض فيه هو أنه يوحي بوجود الحياة الأبدية ومع ذلك يبث شعوراً لا يطاق من الخوف من الموت وفقد المعاني.

* * *

كانت هناك أوقات في حياة شاكيرا أدلت فيها بأكثر من أربعين حواراً صحفياً في اليوم دون أن تكرر نفسها في أي منها . لديها أفكار خاصة حول الفن والحياة على الأرض والحياة الأبدية ووجود الله والحب والموت. ومع ذلك فإن الصحفيين الذين يجرون معها هذه الحوارات يصرون دائماً على جعلها تشرح هذه الأفكار حتى جعلوا منها خبيرة في الإجابات المتهربة التي تضلل أكثر مما تكشف. وترفض شاكيرا دائماً كل فكرة مرتبطة بمدى هشاشة شهرتها ، فأكثر

ما يحنقها هو الحديث المتكرر عن إمكانية أن تفقد صوتها بسبب سوء استخدامه . "تحت ضوء النهار الساطع لا أريد أن أفكر في الغروب". وعلى أي حال فإن المتخصصين يرون أنه احتمال ضئيل. ذلك أن صوته لديه ميزة طبيعية تجعله قادراً على التحمل . كان عليها في بعض الأوقات أن تغني وسط نوبات الحمى وفي مرات فقدت الوعي من شدة الإرهاق ولكن لم يحدث قط أن عانت أي تغير في صوتها .

في إحدى المرات وبعد أن نفد صبرها من صحفية كانت تجري معها حواراً قالت: " إن أسوأ إحباط يمكن أن يصيب المطرب هو أن يختار طريق الموسيقى ولكن لا يكون قادراً على عمل الموسيقى كل يوم بسبب انشغاله بالحوارات". والحب هو أكثر الموضوعات المحببة إلى نفس شاكيرا. فهي دائماً تشيد به وتضعه في قالب مثالي وهو من أغانيها الروح والقلب ولكنها تتحدث عنه بروح دعابة في الجلسات الشخصية. "في الحقيقة – تقول مقهقهة – إني أخاف من الزواج أكثر مما أخشى الموت".

وقد تقبلت بروح طيبة أن يكون لها أربعة أصدقاء في العلانية وعلى الأقل ثلاثة آخرون في الخفاء. والمثير للانتباه أنها ترتبط بأشخاص متوافقين معها سناً ولكنهم لا يجارونها نضجاً. فمثلاً كان المطرب البورتريكي أوزلد ريوس أكبر هؤلاء سناً ولكنه أقلهم نضجاً.وهي تتحدث عنهم بتأثر ولكن دون ألم. ويبدو أنها تتذكرهم كسبعة أطياف زائلة تعلقهم الواحد تلو الآخر في خزانة ملابسها. ولحسن الحظ فإنه لا يوجد لديها أسباب للإحباط . ففي الثاني من فبراير القادم – تحت برج الدلو – ستتم شاكيرا سنواتها الثلاث والعشرين.

اقتباس غير مسلح*

أرسلت إحدى قارئات جابو إليه تسأله :

الكاتب القدير جابرييل جارثيا ماركيز ،

منذ بدأت في قراءة أعمالك كنوع من الواجبات الدراسية في البداية قابلت شخصية الدوق مارلبروف عدة مرات ووجدت أنه لا علاقة له على الإطلاق بكولومبيا . والآن وأنا أقرأ "الحب في زمن الكوليرا" - وأعتذر أن ذلك جاء في وقت متأخر- أجد الروائي الفرنسي جوزيف كونراد (!!؟) يحضر إلى سانت مارتا ليبيع الأسلحة إلى الحكومة للحرب الأهلية. فهل كل هذه وقائع حقيقية أم أنه من قبيل الواقعية السحرية ؟

مع احترامي،

ماريا ديل الكارمن ميراندا- بارنكييا

* العنوان الأصلي للمقال "تتاج القريب البعيد" .

وها هو جابو يجيب قارئته بقوله:-

ربما كانت الأغنية الأولى التي حفظتها عن ظهر قلب في المدرسة في أكاتاكا وأنا في الرابعة من العمر هي التي كان يعرفها العالم أجمع في ذلك الوقت : مامبرو ذهب للحرب،يا للأسف ،يا للحسرة . وقد سألت جدتي لأمي السيدة ترانكيلا أواران عمن يكون هذا المامبرو الذي يغني له الجميع طوال النهار فخرجت معي من المطبخ لتعطيني إجابة قوية : مامبرو كان جنديا شجاعا حارب مع جدك في حرب أوريبي أوريبي (تعني حرب الألف يوم). وفيما بعد وأثناء دراستي الثانوية عرفت أن مامبرو هو اللقب الذي كان يطلق على جون ترشل أو الدوق مارلبوف الجنرال الانجليزي الشهير في القرن الثامن عشر – والذي ينحدر منه مباشرة القائد ونستون تشرشل – وكان هو القائد الذي لا يقهر للقوات البريطانية وقوات الحلفاء الأوروبية خلال حرب الخلافة الأسبانية بين عامي ١٧٠١- ١٧١٤. غير أن ما خلده في التاريخ لم تكن بطولاته التي لا تنسى بل تلك الأغنية الساخرة التي تسخر من هزيمته النهائية والتي ألفها الجنود الفرنسيون – أو كما كان يطلق عليهم الجنود الورديون – وأصبحت تتردد على ألسنة الكبار والأطفال بلغات مختلفة.

كبرت وفي داخلي تلك الفكرة وفي لحظة لا أستطيع تحديدها الآن قررت أن أستولي على شخصية مامبرو ولقبها العظيم . ومنذ روايتي الأولى عندما تعرف عليه أحد جنود الكرونيل اولريانو بويندیا في ضوء كشاف معسكر وكان بين

النوم واليقظة فصاح في فزع : "يا للهول، إنه دوق مارلبروف". وبعد اثني عشر عاماً في رواية مائة عام من العزلة كان الكرونيل اولريانو بويندبا هو من يجلسه بنفسه إلى يمينه في الاحتفالات التي تقام في أوقات الانتصارات والمجد. وكان يظهر دائماً بصورته التقليدية مرتدياً حلة من جلد النمر وأحذية طويلة وقبعة مزدانة بمخالب وأنياب لآن عندما أنظر إلى الوراء فإني لا أستطيع أن أفهم مطلقاً كيف خطرت لي صورة بمثل هذا القبح .

الأمر يختلف لحد كبير بالنسبة لأمر الكاتب الإنجليزي جوزيف كونراد في الفصل الأخير من وراية "الحب في زمن الكوليرا" لأن القصة هنا واقعية تماماً بل وموثقة . والحكاية كما وردت في الرواية هي أن جويف ك. كروزنيوسكي البولندي الأصل ظل يقيم لعدة شهور في ميناء سانت مارتا بكولومبيا عام ١٨٧٥ على ظهر المركب الفرنسي سانت أنطوان وكان هدفه الأساسي هو بيع شحنة من الأسلحة إلى الحكومة الليبرالية بزعامة السيد أكيليو بارا والتي كانت في حرب مع المحافظين . والحقيقة أن الاسم البولندي هو الاسم الحقيقي للكاتب الانجليزي جوزيف كونراد أحد أعظم الروائيين في ذلك القرن وفي قرون عديدة بعده. وكان معروفاً بأنه مهرب وتاجر أسلحة في البحر المتوسط. وهكذا لم يكن من العجيب أن ينقل الأسلحة أيضاً إلى كولومبيا في حرب ربما كانت تثير اهتمامه لدوافع تجارية أو حتى سياسية.

قبل أن أعرف أياً من هذا كنت قد قرأت رواية

نوسترومو وهي أعظم أعمال كونراد وكان قد كتبها بعد ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من زيارته لكولومبيا. وأدهشني وصفه للميناء الكاريبي الذي تجري فيه الأحداث والذي كان صورة طبق الأصل تقريباً من ميناء سانت مارتا الكولومبي .وخاصة بذلك الخليج الهادئ المنعزل الذي يقع في مواجهة الجبل ذي القمم المغطاة دائماً بالثلوج في قلب المنطقة الاستوائية. لم يكن هناك حاجة لأن تكون روائياً لامعاً لتصل إلى استنتاج بأن كونراد قد دخل إلى التاريخ الكولومبي عبر البوابة المحظورة لتهريب الأسلحة.

وهذه الألعاب معتادة لحد كبير بالنسبة لكثير من الكتاب بيد أنها لا تكون صعبة الحل على هذا النحو.عندما قرأت "وفاة ارتموني كروث" لكارلوس فوينتس أدهشني أن شخصية الثوري المكسيكي الكولونيل لورانثو جابيلان التي أقحمت في الكتاب بطريقة لا تقاوم قد اختفت فجأة وللأبد وعلى نحو غير مبرر أو مفسر عند خروجه من بيت مكسيكي مشبوه. وقد ناقشت الأمر مرات عديدة مع فوينتس وكنا نستمتع بالبحث عن حلول مناسبة لهذه الشخصية الضالة.

وبعد زمن وأثناء كتابتي لمائة عام من العزلة وجدت نفسي أتعثر في شخصية لا أستطيع أن أجد لها نهاية مناسبة وخطر لي حينئذ أن هذه ربما كانت شخصية الرجل الذي هرب من رواية فوينتس . وتراءى لي أنه من المحتمل أن يكون قد هرب إلى سانت مارتا حيث تجارة الموز بعد أن أجهضت طموحاته في الثورة المكسيكية وها هو يعود ليظهر مرة أخرى

بالاسم نفسه في الاحتجاجات التي انتهت بمذبحة ماكوندو.وكان آخر ما شوهد منه هو جثته مكدسة مع غيرها من جثث الآلاف الذين سحقهم الجيش ومحمولة في قطار شحن متجه للإلقاء بها جميعها في البحر.

وهناك المزيد : فهناك الكثير من الاقتباسات والاستشارات وعمليات الهجوم غير المسلحة التي استفدت فيها من أعمال البارو موتيس ولكن كان أهمها وأكثر ما أشكره عليه هو ما أخذته بإذنه في روايتي الجنرال في متاهته . فقد كنت أحتاج إلى عسكري أوروبي ذي مكانة عالية يقوم بزيارة لسيمون بوليفار في مقره بقرطاجة. وكان ألبارو يكتب في نفس الفكرة في كتابه "المحرر" فأصر على أن يتوقف عن الكتابة ليترك لي الفرصة لمواصلة كتابي دون غضب منه أو أي نوع من الضغائن. بل إن إحدى الشخصيات التي ظهرت في كتابه "الوجه الأخير" بدت لي ممتازة لإنهاء عملي. ولأنني كنت أخشى أن أخطيء فقد طلبت منه في محادثة هاتفية أن يكتب لي التفاصيل واشترطت أن يكون ذلك على الماكينة وليس بخطه المتشابك الذي يشبه مصاص الدماء والذي اعتاد أحد المعلمين في نيبيا أن يخيف به الأطفال. وفي نفس المكالمة أملاني هو الفقرة كلمة بكلمة عبر الهاتف وقد نشرت كما هي في كتابي دون تغيير فاصلة واحدة.

وأخيراً : عندما انتهيت من قراءة لعبة الحجلة لخوليوكورتاثر جذب انتباهي وصفه المفصل للفندق الباريسي الذي مات فيه الطفل روكامادور - وهو إحدى شخصياته

الغريبة – دون أن يحدد له عنواناً . وكنت أنا أعرف الفندق لأنه يقع في شارع ذوفين وهو نفس الشارع الذي عاش فيه لسنوات الكاتب الكولومبي ارتورو لاجودو ولم انجح في مقاومة الإغراء في أن أضمن مائة عام من العزلة جملة حنين حول سكن الطفل :" الحجرة ذات رائحة القرنبط المسلوق التي كان على روكامادور أن يموت فيها.

وفي كتاب آخر من كتبي- لا أذكره على وجه التحديد- تجد الباخرة الشبح لفكتور هوجيس بطل رواية "قرن الأضواء" لأليخو كاربنتيير تمخر عباب الكاريبي.

وعلى العكس مازلت أرغب في أبعد عن ذاكرتي ذكرى خوان رولفو الذي أكن له الكثير من الحب والإعجاب. ذلك أنني في المناسبات العديدة التي استشرته فيها حول بعض الأفكار كان يجيبني بطريقته الساحرة التي تترك المرء كالمعلق في الهواء . وعلى الرغم من ذلك فإنني الآن وبعد موته مرقت بعقلي أثناء حديثي في أمور أخرى عبارة عرضية فهمت أنها الإجابة التي لم أحصل عليها منه قط : "ليس هناك مكان أشد خطورة لمواصلة الحياة من صفحات كتاب لا يخصك".

غريق على أرض صلبة

"هذا المقال كتبه جابو من كوبا حول مشكلة الطفل الكوبي إليان جونثالث"

عندما ذهب خوان ميجل جونثالث يوم الجمعة إلى مدرسة طفله اليان ليصطحبه ليقضي معه عطلة نهاية الأسبوع أخبروه أن السيدة اليزابيث بروتونوس زوجته السابقة وأم ولده قد أخذته في منتصف النهار ولم تعده مرة أخرى في المساء. بالنسبة لخوان بدا له هذا أمراً طبيعياً في فترة طلاقه . فمنذ انفصل عن زوجته قبل عامين والطفل يقضي أوقاته متنقلاً بين منزل والده ومنزل والدته. ولكن عندما رأى ميجل أن منزل اليزابيث ظل موصداً ليس لنهاية الأسبوع فقط بل طوال يوم الاثنين أيضاً بدأت الشكوك تساوره . وعندئذ اكتشف الخبر المفزع الذي بدأ ينتشر ويسبب الإزعاج في مدينة كتارديناس بطولها : لقد حملت الأم اليان إلى ميامي مع اثنى عشر شخصاً آخرين في قارب لا يزيد طوله عن خمسة أمتار ونصف دون أطواق نجاة وبمحرك عتيق تم إصلاحه عدة مرات من قبل .

كان ذلك في الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٩٩٩.

"في ذلك اليوم انتهت حياتي" هكذا قال خوان. وعلى الرغم من طلاقهما إلا أن خوان واليزابيث كانا يحتفظان بعلاقة طيبة ومستقرة ، بل وغريبة في الوقت نفسه ، ذلك أنهما استمرا يعيشان في نفس المنزل. وقد جاء اليان للحياة بعد جهود كبيرة إذ أن اليزابيث كانت تتعرض للإجهاض أكثر من مرة خلال الشهور الأربعة الأولى من كل حمل. وتكرر ذلك ست مرات ولكن بعد مساعدة طبية خاصة ولد الطفل المنتظر ومنحاه الاسم الوحيد الذي اختاراه حتى من قبل الزواج : إليان . وقد جذب الاسم الانتباه كثيراً خارج كوبا، فقد أضفى عليه طابعاً دينياً . أما في كوبا فقد كان اسماً كغيره . ولكن ما فعله اليزابيث وخوان هو انهما منحا طفلهما اسماً مركبا من اسميهما معاً فإليان هو مزيج من الحروف الأولى لاليزابيث والأخيرة لخوان.

كانت اليزابيث في الثامنة والعشرين من عمرها عندما أخذت اليان إلى ميامي . وكانت طالبة متفوقة في دراسة الفندقة واحتفظت بتميزها ولطفها عندما عملت مضيفة في أحد فنادق الدرجة الأولى هو باراديس - بونتا أريناس دي باراديرو . وقد روى والدها أنها وقعت في حب خوان ميجل جونثالث ولم تكد تبلغ الرابعة عشرة وتزوجا بمجرد أن أصبحت في السادسة عشرة. "لقد كنا كالإخوة" هكذا يعلق خوان وهو شاب متعقل ذو شخصية طيبة وكان يعمل أيضا في باراديرو كبائع في منتزه جوسون . وعندما تم الطلاق بينهما استمرا يعيشان في مدينة

كارديناس - التي ولد وعاش فيها جميع أبطال هذه المأساة - حتى أحبت اليزابيث ذلك الرجل الذي كلفها حياتها : لاثارو مونيرو وهو زئر نساء بلا وظيفة ثابتة وقد تعلم الجودو ولكن ليس كنوع من التدريب البدني بل ليكون وسيلته في الشجار. كما أنه قضي عامين في السجن بعد أن أدين في قضية سرقة بالإكراه في فندق سيبوني دي بارادير و . أما عن خوان ميجل نفسه فقد تزوج بعد فترة من نلسي كارميتا التي رزق منها بطفل يبلغ من العمر الآن ستة شهور وكان بالنسبة لإليان في أهمية الحياة ذاتها حتى أخذته والدته إلى ميامي.

* * *

خوان ميجل لم يضع الكثير من الوقت لمعرفة أين ذهب طفله لأنه في بلد كاريبي فإن كل شيء يعرف بسهولة حتى قبل أن يحدث. كان الجميع على ثقة من أن المحرك الأساسي والمخطط للعملية هو لاثارو مونيرو الذي سافر مرتين على الأقل إلى الولايات المتحدة ليهيئ الميدان . وقام لاثارو بالاتصالات اللازمة ليس ليصحب اليزابيث وابنها فقط بل إنه أخذ معه أيضا أخيه الأصغر ووالده ذا الستين عاما ووالدته التي كانت توشك أن تتعافى من جلطة في القلب. أما شريكه في الخطة فقد اصطحب معه عائلته بأكملها : زوجته ووالديه و أخاه إضافة إلى إحدى الجارات التي كان زوجها ينتظرها في الولايات المتحدة بالفعل. وفي اللحظة الأخيرة

ولقاء ألف دولار للفرد صعدت إلى القارب أيضاً أريانا أورته وهي شابة في الثانية والعشرين من العمر ومعها ابنتها ازفاني ذات الأعوام الخمسة وفلادمير فرنانديث زوج إحدى الصديقات.

وكانت الوسيلة المضمونة للحصول على استقبال رائع لمجموعة من المهاجرين في الولايات المتحدة هي الوصول إليها غرقى في مياهها الإقليمية .كانت كارديناس نقطة انطلاق مناسبة نظراً لقربها من سواحل فلوريدا ولكثرة انحناءات الساحل التي يصعب التوغل فيها بالنسبة لحرس الحدود . علاوة على ذلك فإن حطام سفن الصيد المتناثر في مستنقعات ثاباتا وتيسورو سهلت لحد كبير توفير المادة الخام اللازمة لبناء وسيلة النقل وخاصة الأنابيب الألومنيوم والتي كانت تباع بأسعار زهيدة لا تذكر . ولابد أن مونيرو قد أنفق مائتي دولار وحوالي ثمانمائة بيزو كوبي للحصول على محرك وبناء القارب. وكانت النتيجة في النهاية قارباً لا يزيد طوله عن طول سيارة بلا مقاعد ولا سقف. أي أن المسافرين كان عليهم أن يجلسوا في جوفه تحت وهج الشمس مباشرة . كان من المفترض أن يكون الجمع مستعداً منذ سبتمبر الماضي في انتظار أن ينتهي فصل الأعاصير . على جانبي القارب كانت هناك ثلاثة من إطارات السيارات تستخدم كأطواق نجاة لأربعة عشر فرداً. ولم يكن هناك مكان لأي شخص آخر. كانت الإطارات الثلاثة سوداء مما يتمشى مع المعتقدات الكاريبية التي تؤمن بأن هذا اللون يطرد أسماك القرش العمياء بطبيعتها.

قبل المغادرة حقن غالبية المسافرين بعقار جرافينول في الوريد لمقاومة الدوار . ويبدو أن الركب قد رحل في العشرين من نوفمبر من إحدى النقاط القريبة جداً من كاردينـاس ولكن كان عليهم العودة مرة أخرى لعطل في الموتور . وهناك ظلوا مختفين لمدة يومين في انتظار إصلاح العطل في الوقت الذي كان خوان ميجل يعتقد أن ابنه قد أصبح بالفعل في ميامي. وكان لهذا الموقف الطاريء أهميته إذ أدركت أريانا اورتـه أن المغامرة تحوي من المخاطر ما يزيد كثيراً عن احتمال طفلتها ولذلك قررت تركها على الأرض مع عائلتها على أن تأخذها فيما بعد ولكن بطريقة أكثر أمناً . وقيل أيضاً أن إليان كان قد بدأ يستشعر المخاطر التي ستواجهه ولذلك بدأ يبكي بصوت مرتفع حتى يتركوه . وخشى مونيرو أن يكشف بكاؤه أمرهم فهدد زوجته قائلاً : "إما أن تسكتيه أنت أو أسكته أنا" .

رحل القارب مرة ثانية في الثاني والعشرين من نوفمبر في بحر حالته مطمئنة وموتور حالته تثير القلق. وفي ظروف كهذه فإن الرحلة يمكن أن تستغرق بين ثمان وأربعين إلى ستين ساعة وخاصة مع قارب كذلك الذي كانوا فيه.

كانت الحكايات التي رواها الناجون للصحافة في فلوريدا أو تلك التي أضافوها في مكالماتهم الهاتفية إلى أهلهم في كوبا خير مصدر للتفاصيل والمعلومات حول المأساة مادمنا نفتقد رؤية إليان نفسه لما حدث. فطبقاً لرواياتهم فإنه في ليلة الثاني والعشرين قرر القائمون على الرحلة التخلص من المحرك وخلعه وإلقاءه في البحر تخفيفاً لحمولة القارب غير أن

القارب المكتظ تمايل ثم انقلب على جانبه في الماء ووقع جميع الركاب في البحر وغرق القارب.

كانت تلك هي النهاية في ليلة حالكة وجحيم من الرعب والذعر . في البداية غرق العجائز الذين لم يكونوا يعرفون السباحة من فورهم وكان العامل الذي زاد من حجم المأساة هو عقار الجرافينول ذلك أنه مع تأثيره كمضاد للدوار فإنه أيضاً كان يسبب النعاس ويعرقل ردود الأفعال.

وأخيراً تمكن كل من أريانا ونيبالدو من التشبث بأحد الإطارات بينما تعلق إليان ووالدته بالإطار الآخر . ولم يعرف أحد ماذا حدث للإطار الثالث. كان إليان يجيد السباحة ولكن والدته لم تكن كذلك " لقد شاهدت أمي وهي تغرق " هكذا قال الطفل لوالده فيما بعد في مكالمة هاتفية. والذي يصعب فهمه حقاً هو كيف توفر لها الوقت لكي تعطي ابنها زجاجة من الماء العذب .

* * *

كان خوان ميجل في ذلك الوقت يعاني المعلومات المضللة وراح يتصل لأكثر من مرة بعمه لاثارو جونثالث المقيم في ميامي منذ سنوات عديدة. وأخذ ذلك يتلمس الأخبار عن وصول حديث لقوارب في الخفاء أو أي حوادث غرق وقعت مؤخراً بيد أن أحداً لم يقدم له إجابات شافية. وأخيرا في صباح يوم الخميس الخامس والعشرين من نوفمبر بدأت الأخبار تتوافد متتابعة. أولاً عثور أحد الصيادين على جثة

سيدة. بعد ذلك ظهر اريانا ونيبالدو متشبثين بالإطار . وبعد ذلك بقليل ترددت معلومات عن ظهور طفل أمام فورت لودردال وكان فاقد الوعي وقد التهب جسده من الشمس . ولم يكن معلقاً في الإطار بل كان نائماً على ظهره فوقه . كان هو إليان ... الناجي الأخير.

كان الهدف الملح أمام خوان ميجل منذ علم بالأمر هو الحديث إلى طفله ولو عن طريق الهاتف غير أنه لم يكن يعرف أين هو . وفي الخامس والعشرين تلقى اتصالاً من أحد الأطباء في ميامي يستفسر منه عن الأمراض السابقة التي أصيب بها ولده والجراحات التي تعرض لها والأدوية التي يعاني حساسية منها . وعرف خوان بالكثير من الفرح والسرور أن إليان هو من أخبر من بالمستشفى عن اسمه واسم والده وعنوانه في كارديناس ورقم هاتفه. وأعطى ميجل الطبيب ما طلبه من معلومات وفي اليوم التالي عاود الطبيب الاتصال به وجعله يتحدث إلى طفله. وبصوت متأثر ولكنه ثابت روى إليان على والده كل ما حدث أثناء غرق والدته .ولكنه قال له أيضاً إنه قد فقد حقيبته وزيه المدرسي . وفسر الأب هذا على أنه إشارة تدل على أنه مازال فاقداً للتوازن فحاول أن يساعده قائلاً : " لا تقلق يا صغيري فحقيبتك وزي المدرسة لا يزالان هنا معي احتفظ بهما من أجلك لحين عودتك". ولكن ربما كان إليان قد حصل على زي آخر وحقيبة أخرى في منزل والدته تم شراؤهما له حتى لا يصر على العودة إلى منزل والده لإحضارهما. كان ولع الطفل بالمدرسة أمراً يعرفه عنه جميع

أساتذته ويدل على ذلك مع قاله لأحد مدرسيه في حديث هاتفي: "احتفظوا لي بمقعدي وطاولتي".

منذ المكالمات الهاتفية الأولى وخوان يدرك أن هناك من يسعى عمداً في ميامي إلى عرقلتها وإفسادها فقد قال لي بنفسه: " أتعرف أنهم كانوا يفعلون المستحيل للتفريق بيننا فقد كانوا يتحدثون بصوت عالٍ ويصرخون بجواره إثناء حديثه معي أو كانوا يرفعون صوت التلفزيون على أعلى درجة ويديرون أفلام الكرتون وأحياناً كانوا يضعون له في فمه قطعة كبيرة من الحلوى حتى لا أفهم ما يقوله لي". وأضاف : " نفس هذه الحيل قاساها جداه أثناء زيارتهما العاصفة إلى ميامي للقائه عندما قامت شرطية بأمر من راهبة متشددة بانتزاع الهاتف الخلوي الذي كانا ينقلان بواسطته أخبار الطفل إلى العائلة في كوبا. كان من المقرر أن تستمر هذه الزيارة لمدة يومين ولكنها اقتصرت في النهاية على تسعين دقيقة تخللتها جميع أنواع المقاطعات والتدخلات ولم ينالا خلالها سوى ربع ساعة بمفردهما مع إليان. وعندما عاد الجدان قالا في فزع "إنه لم يعد هو إليان الذي نعرفه .. يجب إنقاذ هذا الطفل".

ويبدو أن أحداً في ميامي لم يهتم على الإطلاق بالضرر النفسي والعقلي الذي من الممكن أن يصيب الطفل بالزج به في الثقافة الجديدة التي فرضوها عليه . ففي عيد ميلاده السادس الذي احتفلوا له به في أسره في ميامي قامت العائلة المضيفة بأخذ صورة له وهو يضع على رأسه خوذة قتال محاطاً بأسلحة فتاكة وملفوفاً بعلم الولايات المتحدة . وكان

ذلك قبل وقت قصير من وقوع الحادث الذي قام فيه تلميذ من عمره بقتل زميلته في المدرسة بأن أطلق عليها رصاص مسدس في ولاية ميتشجن .

إن هذا لم يكن تعبيرا عن الحب بل كان مؤامرة سياسية لا تخطئها عين شارك فيها آلاف من الكوبيين الذين ينتمون بلا شك إلى المؤسسة الكوبية الأمريكية التي أسسها خورخي ماس كانوسا ويديرها أحفاده من بعده والذين فيما يبدو أنفقوا الملايين من الدولارات لكي لا يعود إليان إلى وطنه.

اريد أن أقول : إن الغرق الحقيقي الذي تعرض له إليان لم يكن في وسط الماء بل بمجرد أن وطأ الأرض الصلبة للولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان للغضب الذي اشتعل في نفوس الكوبيين بسبب هذا الاختطاف المهين مقدماته حتى في الثورة الكوبية نفسها.وكانت التعبئة الشعبية وذلك السيل من الأفكار التي تبرع بها الجميع للمطالبة بعودة إليان فطرية ومشهودة حقاً. وكان الجديد في ذلك هو المشاركة الطاغية للشباب وحتى الأطفال. وقد كتب الشاعر الكاثوليكي ثينتيو بيتيير يقول تعليقاً على حماقة سلوك الولايات المتحدة قائلاً: " يا لهم من حمقى.. لقد وحدوا بيننا للأبد". وعلى الساحل الآخر صاغ أحد معارضي الثورة الكوبية العبارة بطريقة أخرى: " لقد كان الأمريكان من الحماقة لدرجة أنهم ألقوا بالشباب الكوبي في أحضان كاسترو".

غير أن المؤسسة التي أخذت على عاتقها مهمة إبقاء إليان على الأراضي الأمريكية كانت فيما يبدو تمتلك الكثير

والكثير من القوة والمال حتى في مواجهة الهيئات القضائية في الولايات المتحدة. ففي الخامس من يناير أقرت الهيئة القومية للهجرة بالولايات المتحدة أن خوان ميجل هو الشخص الوحيد المهيأ للحديث باسم الطفل إليان وتمثيله. وفي الرابع والعشرين من نفس الشهر طالبت السفيرة ماري أ. ريان سكرتيرة الدولة لشئون القنصليات بأن يعود إليان إلى والده بأقصى سرعة. وقالت إن أي قرار يتخذ بخلاف ذلك سيكون انتهاكاً كاملاً للمباديء التي سيدافع عنها الشعب الأمريكي في حالة إذا ما كان إليان طفلاً أمريكياً.أما الرئيس بيل كلينتون فقد صرح للصحافة قائلاً إن مثل هذا الموضوع لا ينبغي أن يتدخل فيه أي سياسي بل من المفروض الاحترام الكامل لقرار إدارة الهجرة.

* * *

ولا يبدو الأمر مجرد مصادفة أن قضية الوطن الحامي بدأ يسيطر على التوتر في العلاقات بين الولايات المتحدة والثورة الكوبية منذ بداياتها . ففي عام ١٩٦٠ أثناء فترة إدارة الرئيس أيزنهاور قامت المخابرات الأمريكية باختراع قانون وضعته حرفاً حرفاً ثم روجت له داخل الأراضي الكوبية ويقضي بأن جميع الأطفال الكوبيين سينتزعون من آبائهم وسيرسلون إلى معسكرات تأهيل في الاتحاد السوفيتي ليخضعوا لما يشبه غسيل المخ. بل والأفظع

أنها سربت شائعات أخرى تقول إن أجمل الأطفال سيرسلون إلى المذابح في صربيا ليعودوا كاللحوم المعلبة. وقالوا أيضاً أن حوالي خمسين من الأمهات في مدينة بايامو شرقي كوبا قد فضلن أن يقتلن أبناءهن على تركهم لهذا القانون المرعب . وكان هذا هو ما أطلق عليه الأمريكان عملية بيتر بان. وعلى الرغم من أن الحكومة الكوبية قد نفت هذا الأمر بشكل قاطع إلا أن حكومة أيزنهاور قد توصلت إلى اتفاق مع الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة يصبح بمقتضاه بإمكان الآباء الكوبيين أن يقوموا بإرسال أبنائهم إلى الولايات المتحدة دون جوازات سفر ودون أي يكونوا بصحبتهم ودون حتى أن يحملوا أية أمتعة. وبهذا فقد تحولت هذه الهجرة الجارفة التي استثمرت فيها الولايات المتحدة أكثر من ثمانية وعشرين مليون دولار إلى مجتمع من اليتامى المزعومين الذين أخضعوا بالقوة للثقافة الأمريكية.

إذاً هل سيكون من المناسب أن نربط بين قضية إليان وعملية بيتر بان جديدة ؟ لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في هذا الأمر عندما سمعت مرافعة عامة قام بها محام شهير يتبع إدارة الهجرة بميامي ويدعي خوسيه برتيرا وهو كوبي وصل الولايات المتحدة عندما كان في الثانية عشرة من عمره وسط هذا الطوفان من الأطفال بدون آباء . قال برتيرا في مرافعته : " حتى عائلة الطفل الموجودة في الولايات المتحدة لا تقول إن خوان ميجل والد سيء. إن ما يقولونه هو أنهم لا يروق لهم سياسة فيدل كاسترو، ولكن كاسترو ليس هو والد

الطفل ". واختتم المحامي حديثه قائلاً : " إن أكثر الأمور إثارة للقلق هو أن القضاة في فلوريدا قضاة منتخبون وإعادة الطفل قد تكلفهم فقد إعادة انتخابهم في ميامي" . وعلى الفور أثير الانتباه أيضاً إلى أن القاضي كنج الذي كان في يده اتخاذ القرار بشأن الطفل كان ينبغي أن يتم إبعاده عن القضية نظراً لوجود روابط تربطه بالمؤسسة الكوبية الأمريكية. أما خليفته القاضي هوليفر فقد أصيب بمرض في المخ ليأتي القاضي الحالي مايكل مور الذي لا يبدو في عجلة من أمره ليصدر قراره قبل الانتخابات.

وعلى أية حال فإن اكثر ما يخيف الكوبيين هو تكون إدارة كلينتون عاجزة عن إعادة الطفل إلى والده على الرغم من قوانينها وإدانتها لما يحدث لا لشيء إلا خوفاً من أن يفقد المرشح الديمقراطي آل جور أصوات الناخبين في فلوريدا.بيد أن الخسارة القضائية والتاريخية التي يمكن أن تعود على الولايات المتحدة يمكن أن تكون مكلفة بشكل يفوق كثيراً مجرد عملية انتخابية. ذلك أن عشرة آلاف طفل امريكي منتشرون في جميع أنحاء العالم اليوم برغبة أحد والديهم دون الآخر. والخطورة تكمن في أنه لو كانت هناك رغبة في إعادتهم إلى الولايات المتحدة فإن سابقة الطفل اليان يمكن أن تستخدم بسهولة للحيلولة دون ذلك.

ورقة بورقة

سيدي المبجل ،

بالنسبة لكثير من الأشخاص تصعب حقا قراءة روايتك"خريف البطريرك" بسبب الطول المفرط لجملها . لدرجة أنه قيل إنها رواية مكتوبة في عبارة واحدة . ألم يكن من الأسهل بالنسبة للقراء والأيسر بالنسبة لك أن تكتبها مستخدما نقاط الفصل بدلاً من الفواصل فقط؟

ألبرتو برنال

بوجوتا

بدأت في كتابة النسخة الأولى من خريف البطريرك عام ١٩٥٨ في كاراكاس، و كانت حكاية بسيطة ومباشرة يتحدث الرواي فيها بالضمير الثالث حول دكتاتور خيالى من منطقة الكاريبى. وكانت خصائص الشخصية مأخوذة من عدة مصادر وإن كانت فى مجملها مستقاة من شخصية الدكتاتور الفنزويلى خوان بيثنتى جوميث. لم أكن قد تقدمت كثيراً في

الكتابة عندما وجدت أن على السفر إلى هافانا كمراسل صحفي لتغطية وقائع محاكمة شعبية علنية من قبل القضاء الثوري لأحد جنرالات فولخنثيو باتيستا والذي كان متهما بارتكاب كل ما يمكن تخيله من جرائم الحرب. استمرت المحاكمة ليلة كاملة في إستاد مكتظ بالبشر وبحضور عدد كبير من المراسلين و الصحفيين من مختلف أنحاء العالم. ومع حلول الصباح حكم على الجنرال بالموت و أعدم بعد ذلك بعدة أيام.

كان ذلك درساً قاسياً من الواقع ضد طموحات وشطحات الخيال أجبرني على أن أعيد النظر في الشكل التقليدي الذي أكتب به روايتي وأبحث عن شكل آخر أقوى أو ربما يتناسب مع الوقائع التي عايشتها تلك الليلة. خطر لي مثلا أن أجعل الديكتاتور نفسه يروى قصته كاملة أثناء الساعات العشر الأخيرة التي تسبق محاكمته. وكانت السطور الأولى في الرواية قد أوحى لي بها المتهم نفسه عندما صعد إلى المنصة فغشت عينيه الأضواء الوحشية لفلاشات الكاميرات فصاح آمرا بلهجته المتعالية: "اللعنة!! ابعدوا هذه الأضواء عن وجهي" . ولكن سرعان ما تبين لي خطئي . ذلك أن المونولوج الداخلي للشخصية قد يجعل القارئ يدين العمل إذ لن يكون لديه أسباب ودوافع غير تلك التي يذكرها الديكتاتور ولن يكون في العمل سوى صوته هو فقط. فماذا أفعل؟ كانت الأفكار والشكوك تتضارب في رأسي. والواقع أنني لم يكن بي طاقة للمزيد من المعاناة إذ لم أكن قد خلصت بعد من الطوفان الذي جلبته لي "مائة عام من العزلة".

خلال تلك السنوات كان كارلوس فوينتس قد بدأ ينشر فكرته بأن على كل كاتب من أمريكا اللاتينية أن يكتب رواية تدور حول ديكتاتور من بلده وأن تضم هذه الأعمال جميعها فى سلسلة أدبية واحدة تكون تحت عنوان "آباء البلاد". بدأ أليخو كاربنتيير بنشر عمله "أصل المنهج" ثم نشر أوجستو روا باستوس "أنا الأسمى" وكان خوليو كورتاثر يجمع الوثائق حول الاختفاء السرى لجثة إيفا بيرون. أما كارلوس فوينتس فقد كان يقول إنه بصدد إعداد رواية حول الجنرال أنطونيو لوبيز دى سانتانا الذى فقد أكثر من نصف المكسيك وكل ذهب كاليفورنيا في حربه ضد الولايات المتحدة وقام بكل فخر بدفن قدمه التي بترت من جراء الإصابة.

* * *

كانت المشكلة الوحيدة التي تؤرقني في تلك الفترة هي محاولة الإمساك بزمام حياتي مرةً أخرى واستعادة السيطرة عليها بعد ذلك الدوران المفاجئ الذي انتابني بعد "مائة عام من العزلة". ذلك أن الصعب في هذه الرواية لم يكن كتابتها على الإطلاق بل في كيفية الخروج منها وازاحتها عن كاهلي. لم يكن ذلك خطئي أو ذنبي ولكن القراء الذين دأبوا على مطالبتي بصور أخرى منها في أعمالي التالية وما كنت أريده كان على النقيض من ذلك تماماً. فلم أكن أرغب مطلقاً في

تكرار نفسي. ولكي أفر من هذا المـأزق سـافرت إلـى برشـلونة حيث قمت بكتابة سلسلة من القصص القصيرة التي لم تكن فـي الواقع سوى تجارب في التقنيـات فـي البنيـة والأسـلوب الأمثـل بحثا عن شـكل خـاص و مناسـب لروايـة الديكتـاتور. مـن هـذه القصـص "بلكامـان بـائع المعجـزات الطيـب" و"الرحلـة الأخـيرة للمركب الخفي" وفي هاتين القصتين وجدت كل ما كان ينقصني في الإعداد لروايتي الجديدة.

أعتـرف أن القصتيـن بهمـا الكثـير مـن التقليـد الوقـح لمونولوج ماريون بلوم في عوليس Ulyses لجيمس جويس. بيد أن ما كنت أرمي إليـه ليس مونولوجاً لشـخصية واحـدة وإنمـا مونولوجات متداخلة لعدد كبير من الشخصيات وكلهم يواجهـون المونولوج المنفرد للديكتاتور. وهنا تتضح الإجابة على القارئ: إن نظام علامات الترقيم في الرواية هو أقل ما في الروايـة مـن تجاوز لحدود النحو والقواعد . أو بمعنى أوضح هو اسـتراحات قصيرة للنفس في عبارة قيلت من وجهات نظر مختلفة لجمـوع مـن الأشـخاص مـع أفعـال تتغير فـي ضمـائرهـا وتصريفاتهـا وأزمنتها داخل نفس العبارة وفقاً لمن يتحدث وليس وفقاً لأوامر أندريس بيو.

ولمـاذا كـل هـذا ؟ لتحقيـق أكـبر قـدر مـن التكثيـف والضغط اللذين لولاهما لوصل الكتاب إلى ألفين أو ثلاثـة آلاف صفحة ولأصبح أكثر مللاً ممـا هـو بـالفعل . والأدهـي بالنسـبة لهذا العمل أن الطبعة الإسبانية التي أصدرتها دار بلاثا وجـانيز

كانت تحتوى على خطأ في التصنيع جعلها تتفكك في اليد بمجرد الإمساك بها حتى تداول الجميع مزحة تقول: "قرأت خريف البطريرك صفحة بصفحة". لقد منيت الرواية بفشل ذريع على مستوى الجمهور والنقاد حتى جاء جيل جديد وضعها في المكان الذي تستحقه.

"الرجل الذي مات بطريقة طبيعية"

في يناير ١٩٨٣ وبعد شهر واحد من حصوله على جائزة نوبل كتب جابرييل جارثيا ماركيز يتحدث عن ذكري مرت به وانطبعت في ذاكرته . إن كاتب نوبل لن ينسى مطلقاً رحلته إلى المكسيك في الثاني من يوليو ١٩٦١. وقد كتب ماركيز هذا المقال حول حياة هيمنجواي ووفاته ونشر في إحدى الصحف المكسيكية بعد ذلك بأسبوع. وهو يطرح فيه فكرة الانتحار التي تناقض الرواية الرسمية التي أذاعتها ماري ولش أرملة هيمنجواي التي أعلنت أن الوفاة كانت نتيجة حادث عرضي. والمقال لم يظهر في الصحافة مرة أخرى حتى نشرته مجلة كامبيو مع ذكرى وفاة الكاتب الأمريكي الشهير.

يقول ماركيز: وصلنا إلى مدينة المكسيك مع الفجر ومعنا آخر عشرين دولار نمتلكها ودون أي تخطيط للمستقبل. لم يكن لدينا هناك سوى أربعة أصدقاء أحدهم هو الشاعر ألبارو موتيس الذي قضى مراهقته في المكسيك ولم يكن وصل بعد إلى النضج (..) والرابع كان الكاتب خوان جارثيا برونثه

الذي تعرفت عليه في كولومبيا عندما كان يشارك في لجنة تحكيم إحدى مسابقات الرسم . وكان هو نفسه من حادثني هاتفياً بمجرد معرفته بوصولي وصاح بي بصوته القوي : "لقد فجر هيمنجواي رأسه برصاصة ". كانت تلك هي اللحظة – وليس السادسة من مساء اليوم السابق – هي اللحظة التي وصلت فيها بالفعل إلى المكسيك.

هذه المرة يبدو الأمر حقيقياً ، لقد مات إرنست هيمنجواي ، الخبر أثار مشاعر الجميع، مشاعر الشباب على المقاهي ومرشدي رحلات الصيد و مصارعي الثيران وسائقي التاكسي ولاعبي الملاكمة.

وفي هذه الأثناء وفي قرية كتشوم كان موت الجار الطيب مجرد حادث محلي أليم . لقد ظلت الجثة راقدة في حجرة دافئة ولكن ليس لتتلقى تكريماً عسكرياً وإنما في انتظار شخص اعتاد صيد الأسود في أفريقيا. والجسد لن يظل ملقى معرضاً لنبش الطيور الجارحة بجوار بقايا نمر أرقط مجمد على قمة جبل ، وإنما سيرقد في هدوء في مقابر نظيفة بين أجساد أصدقاء آخرين . إن كل هذه الظروف تجبر على الاعتراف هذه المرة بأن هيمنجواي قد مات، مات من المحاولة الثالثة .

منذ خمس سنوات وعندما تعرضت طائرته لحادث في أفريقيا ،لم يكن الموت حقيقياً في تلك المرة . لقد عثر عليه طاقم الإنقاذ سعيداً ونصف ثمل في الغابة على مقربة من قطيع أفيال. إن أعمال هيمنجواي – التي لم يكن للأبطال الحق في

الموت قبل أن يعانوا لبعض الوقت مرارة الانتصار – كانت تستبعد مثل هذه الطريقة للموت وهي الأقرب للسينما منها للحياة.

وعلى العكس فإن الكاتب الذي بلغ الثانية والستين – والذي أدخل المستشفى خلال الربيع الماضي مرتين بسبب أمراض الشيخوخة – قد سقط صريعاً في حجرته وقد تفجر رأسه بطلقة بندقية تستخدم في صيد النمور. إن النظريات التي تتحدث عن وفاة هيمنجواي كحادث يشوبها جدال تقني ذلك أن الأمر يبدو مستبعداً بالنظر إلى مهارة هيمنجواي التي لا تضاهى في السلاح .أما نظرية الانتحار فيشوبها أيضاً بعض الجدل وخاصة من الناحية الأدبية ، إذ أن هيمنجواي ليس من تلك الفئة من الرجال الذين يقدمون على الانتحار. ذلك أنه في جميع قصصه ورواياته كان يعتبر الانتحار نوعاً من الجبن.ولكن في جميع الأحوال فإن لغز وفاة هيمنجواي هو حادث عرضي لأنه في هذه المرة سارت الأمور بصورة طبيعية ومات الكاتب بأكثر الطرق شيوعاً بين شخصياته .

والجدل حول هيمنجواي بعد وفاته لا يدور فقط حول الطريقة التي لقي بها حتفه. ولكن الأمر تعدى ذلك ليصل إلى الشكوك التي أثارها النقاد حول قيمته الأدبية . والسؤال الأساسي يدور حول إلى أي مدى وصل هيمنجواي ككاتب عظيم؟ هل كان بالفعل يستحق كل التكريم الذي ناله والذي كان هو نفسه يعتبره أمراً زائلاً ؟

في الواقع كان هيمنجواي دليلاً حياً على الطبيعة

الإنسانية أكثر من كونه حالة فردية. فبطله من الممكن أن يظهر في أي مكان في العالم وفي أي موقف و في أية طبقة اجتماعية يكون فيها ضرورة للكفاح والنضال بضراوة من أجل البقاء وإحراز النصر. وبعد ذلك يكون النصر حالة أرقى تتغلب على كل التعب الجسماني والحيرة النفسية.

بيد أنه في عالم هيمنجواي لم يكن النصر دائماً من نصيب الأقوى ، بل كان مقدراً للأكثر حكمة ، الحكمة المستقاة من الخبرة والمعرفة. وفي هذا الشأن كان الكاتب مثالياً. ونادرة هي المرات التي حدث فيها في أعماله أن تغلبت القوة الجسدية على المعرفة .

إن السمك الصغير إذا تمتع بالحكمة الكافية من الممكن أن يلتهم السمك الكبير. والصياد لا يتغلب على الأسد لأنه مسلح ببندقية ولكن لأنه يعرف بدقة كل أسرار الصنعة ولكن قد يحدث في بعض الأحيان أن يكون الأسد هو من يعرف الأسرار. ففي رواية العجوز والبحر- التي تبدو وكأنها تركيبة تجمع فضائل الكاتب ونقائصه - نجد صياد السمك الوحيد الضعيف المطارد بسوء الحظ يتغلب على أكبر سمكة في العالم في صراع لم يكن صراع قوة وإنما صراع ذكاء .

الوقت أظهر أن هيمنجواي ككاتب صغير استطاع أن يلتهم الكثير من الكتاب الكبار معتمداً على معرفته العميقة بدوافع البشر وخبايا الصنعة. حتى أنه شبه أعماله بجبل الثلج الذي لا يظهر منه سوى ثمن حجمه ولكنه يبقى حصيناً لا يغرق بفضل الأثمان السبعة الأخرى المختفية تحت الماء

لترفعه. ومهارة هيمنجواي تكمن في هذا القدر الكبير من الحكمة المختفية لتطفو بأعماله ذات البنية البسيطة المباشرة المقتضبة في بعض الأحيان.

كان هيمنجواي يتحدث عما رأته عيناه، ويروي ما عايشه و ما استمتع به وما عاناه، لأن ذلك هو الشيء الوحيد في العالم الذي كان يمكنه أن يصدقه ويثق به.لقد كانت حياته سلسلة متواصلة من التعلم لأصول مهنته وهو الأمر الذي بلغ فيه حداً من الأمانة وصل لدرجة المبالغة: كان هذا يدفع للتساؤل في بعض الأحيان كم مرة كانت حياة الكاتب فيها معرضة للخطر حتى تكون صالحة لإشارة بسيطة من إحدى شخصياته.

إن هيمنجواي لم يكن أكثر مما أراده لنفسه. ولكنه في ذات الوقت لم يكن أبداً أقل . كان رجلاً عاش كل أحداث حياته بالكامل ، كان مصيره بشكل ما هو مصير أبطاله الذين كانت لهم صلاحية في أي مكان على الأرض.

هذه هي أكثر الأبعاد مطابقة لشخصية هيمنجواي. وربما لا يكون هذا نهاية لشخص ما ولكنه بداية للأحد في تاريخ الأدب العالمي . إنه الميراث الطبيعي لنموذج إنساني لامع، ولمجتهد أمين لدرجة عجيبة وربما كان يستحق أكثر من مجرد موقع في سجل المجد في العالم.

حكاية قصة

لعلنا نحن قارئي الروايات البوليسية - ونحن كثر في العالم - نعرف أن متعة اللغز ليست في معرفة من القاتل ولكنها الإبحار في أرخبيل من الطرق حتى نتوصل إليه ونكتشفه في الوقت المناسب والمضبوط الذي يحدده المؤلف.

إن هذا التفسير ليس تفسيراً أحمق كما يبدو . كما أن له علاقة كبيرة بآداب القراءة. فالقفز عبر الصفحات لحل عقدة اللغز قبل الوقت المحدد هو ضعف أخلاقي يدينه الضمير. أما الأفلام البوليسية فقد تقدمت خطوة للأمام في هذا المجال: المشاهد يفضل أن يكون شريكاً من البداية على أن يفاجأ في اللحظة الأخيرة بكشف اللغز. وهو ما يعني انه أكثر من رغبته في معرفة القاتل والمقتول فإن مشاهد الفيلم البوليسي يكون شاكراً للغاية إذا ما صحبه صناع الفيلم من يده وساروا به في متاهة العقدة حتى يتم اكتشاف السر.

بالنسبة للنسخة الأولى التي لم تنشر من روايتي "حكاية موت معلن" فقد كانت تنتمي لهذا النوع الأخير حتى أن موت

البطل فيها ظل موضع شكوك حتى النهاية ، ذلك أن الرواية كانت عبارة عن تحقيق صحفي قاس وبسيط حول واقعة قتل أحد أصدقاء الطفولة المحببين تمت عام ١٩٥١ في وقت كنت أخطو فيه خطواتي الأولى في الصحافة في جريدة هيرالد دي برانكيا.في ذلك الحين رجتني أمي ألا أنشر التحقيق لاعتبارات عائلية تخص أسرة الضحية. ولكن بعد سبعة وعشرين عاماً وعندما قررت أخيراً نشر التحقيق في كتاب كان كثير من الأبطال الكبار قد رحلوا عن عالمنا. أما الأجيال الجديدة فلم يكن لديها أدنى فكرة عن المأساة . وعندها قررت -لا أدري لماذا- أن أكشف عن موت الضحية من الفصل الأول حتى يظل القارئ مرتبطاً بالعقدة واقعاً في شراكها ويواصل القراءة هادئاً صفحة بصفحة وحتى سطراً بسطر ، ليس ليعرف إذا كانوا قد قتلوا البطل أم لا بل ليكتشف كيف قتلوه.

كانت الإضافة تتمثل في كلمات ثلاث : "ها قد قتلوه". وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الكلمات الثلاث قد غيرت نظرتي الكلية للكتاب الذي اعتقدت أنني انتهيت منه . ولذلك فقد كان عليّ أن أعيد كتابته في شكله النهائي ولكن ليس كتحقيق إخباري بل كرواية مكثفة في الضمير الأول الذي لا يشير إلى شخص حي بل يتذكره راوية بلا اسم كان شاهداً على الجريمة إضافة إلى انه قام بتحقيق حولها بعد سبعة وعشرين عاماً من النسيان.

لقد كانت الرواية إحدى لحظات الإلهام غير المفسرة والتي تعد بمثابة العناية الإلهية في حياة الكاتب.

إن تغيير النوع الأدبي بطبيعة الحال أجبرني على تغيير بنية النص والأسلوب الواقعي الذي يفرضه التحقيق الصحفي. كما كشف لي عن مشكلة الاضطلاع بالمسئولية الجماعية والأخلاقية لمأساة وقعت لشابين مراهقين لم يتمكن الكبار من تفهم حيرتهما على الإطلاق. وفي النهاية فهمت أنني لم أعد أنا نفسي كما كنت منذ أعوام عديدة مضت متسربة كالماء تحت جسر . هل هذا أمر جيد؟ أما على اقتناع من أنه كذلك: الرؤية الأولى للعمل كما كانت مكتوبة كانت لتصبح كارثة إذا لم يضف إليها كيمياء الحنين وجنون الشعر.

مصيران متقاطعان

كلاهما مهتم بحقوق الإنسان. وكلاهما نصف شاعر. إنهما خابيير سولانا السكرتير العام لحلف شمال الأطلنطي والجنرال وسلي ك . كلارك . وقد كلفا بتنفيذ عمليات قصف يوغوسلافيا . ماركث وهو صديق للأول وعلى معرفة بالثاني يستكشف هذه المفارقة الحزينة.

من الصعب معرفة إذا كان الرجلان اللذان اضطلعا في الرابع والعشرين من شهر مارس بمهمة القصف الهمجي لكوسوفا يعرفان انهما ضحيتان لمصيريهما المتقاطعين. أحدهما هو المدريدي خابيير سولانا مادرياجا السكرتير العام لحلف شمال الأطلنطي (الناتو) . هو مهتم بحقوق الإنسان في السابعة والخمسين من عمره ، أستاذ في الفيزياء استطاع أن يخرج سليماً معافى من ثلاث وزارات مهلكة : الثقافة والتعليم والخارجية. بين أصدقائه العديدين هو دائماً هكذا: مثقف لا يبدو أن له لحية وإنما يظهر كمن يحلق بشكل سيئ بسبب ما يظهر على وجهه من أمارات الأرق ، وهو يعرف سحر الحديث كل

المعرفة وقد قرأ جيداً وبشكل جاد كل كتاب يجب أن يُقرأ والكثير ما لا ينبغي أن يُقرأ . والعجيب انه لم يكتب أي كتاب كما لم يفصح أبداً عن أبيات الشعر العاطفي التي ينظمها .وسولانا يتمتع بشهرة عالمية مستحقة عن جدارة كالرجل الأكثر إسرافاً في الابتسامات والأحضان حتى أن أحد أصدقائه قال عنه إنه قادر حتى على عناق عامود كهرباء. وعلى الرغم من ذلك فإن عينيه في المرات القليلة التي يتخلى فيها عن حذره تكشفان عن شاعر حزين ميال للعزلة.

أما في الحياة السياسية فهو يعرف كيف يحتفظ بمسافات مناسبة مع كل شخص وفقاً لمعياره الخاص، ودائماً بذلك التأدب الجذاب الذي أخذه عن عم والده السيد سلفادور دي مادرياجا . بيد أنه مشهور أيضا بسرعة الغضب عندما يكون هناك سبب يدعو لذلك. وهو يفصح عما يفكر به دون أن ينظر إلى من يتحدث . ومع ذلك فإن التناقض الأخطر في شخصيته تمثل في احتجاجه الشديد على دخول إسبانيا حلف شمال الأطلنطي ثم يصبح اليوم السكرتير العام للحلف وهو على أعتاب حرب. أخيراً فهو مدني غير عادي لا يقدر على قتل ذبابة ومع ذلك كان مسئولاً عن تنفيذ أكثر الأوامر العسكرية وحشية في القرن. والعزاء الوحيد الذي يبقى لنا نحن أصدقاءه هو الاعتقاد بأن هذا العمل الوحشي ليس رغبة نابعة من قلبه بل هو نتاج ما فرضه عليه حظه السيئ.

أما الشخص الآخر المسئول عن التنفيذ التقني للعملية فهو الجنرال الأمريكي وسلي ك. كلارك ، وهو العسكري الذي

يحظى بأكبر عدد من الرجال تحت قيادته في العالم.في البداية تولي قيادة قوات الجنوب في الولايات المتحدة ومقرها في بنما حتى عام ١٩٩٧ . ثم أصبح بعد ذلك القائد الأعلى لقوات الحلف في أوروبا ومقره في بروكسل.

والجنرال كلارك ذو الخامسة والخمسين عاماً ولد في ليتل روك بولاية أركنساس حيث ولد أيضاً صديقه الرئيس كلينتون . حصل على المركز الأول بين دفعته في أكاديمية وست بوينت العسكرية عام ١٩٦٦ ثم حاز درجة الأستاذية في الفلسفة والسياسة والاقتصاد من جامعة أكسفورد بإنجلترا . وهو رجل أنيق ومتكلف لحد ما .يعتبره رفقاء السلاح رجلاً عسكرياً بحق على الطريقة القديمة ،فهو يتقاسم الخبز والملح مع قواته ولا يستطيع العيش دون أن يعرف ما يظنه فيه الآخرون . والذي لا يشك فيه أحد هو أن وراء نجومه الخمس وصف الأوسمة التي حصل عليها يختبئ حلم لا يقاوم بأن يكون معروفاً على أنه مفكر في مجال السياسة وصاحب نظريات حول السعادة الاجتماعية.

وإذا كانت صداقتي الطيبة والمثمرة بخابيير سولانا قد بدأت منذ عشرين عاماً بفضل قوة المواقف الحرجة فإن الطريقة التي تعرفت بها على الجنرال كلارك كانت من أكثر الحكايات غرابة وإثارة للدهشة في حياتي. حدث ذلك منذ ثلاث سنوات في بنما عندما دعاني مجموعة من الأصدقاء البنميين وعلى رأسهم المستشار خورخي ريتر لمشاهدة السدود الضخمة على القناة وما تبقى من قاعدة هوارد في المنطقة التي كانت ما

تزال الولايات المتحدة تحتلها . ما كدنا نغادر مواقع التحكم حتى وجدنا مجموعة من الضباط التابعين للقائد الأعلى لمنطقة الجنوب تغلق الطريق أمامنا . فقط عندما نزلنا من الأتوبيس ونحن تقريباً نرفع أيدينا أعلى رؤوسنا أخبرونا أن الجنرال كلارك ينتظرنا في مكتبه. ومازلنا لا ندري أي مخابرات عسكرية تلك التي استطاعت أن تتوصل إلى أننا سنمر أمام منزله.

كان هناك يقف عند طرف مائدة أركان حرب حافلة بما لذ وطاب من الطعام والشراب، يرتدي زياً عسكرياً استوائياً كذلك الذي يرتديه القادة المستعمرون في الأفلام . كان من الممكن للمرء أن يظن أنه ليس الجنرال كلارك شخصياً بل هو روبرت ردفورد يؤدي دور الجنرال كلارك بإتقان.وكان غرضه الذي عبر عنه – بفصاحة وبطريقة أبناء عمومة احفاد سكارلت أوهارا – هو أن يتبادل معنا وجهات النظر حول أحول العالم . ودون أية مقدمات تقريبا يدأ يتحدث معنا عن تجاربه الشخصية من خلال المهام العسكرية والسياسية العديدة التي كلف بها بداية من فيتنام وحتى البوسنة والتي يعتقد أنها أنضجت وعيه الاجتماعي لحد كبير. ولكن لم يبد وكأنه انتبه في أية لحظة إلى انه – على الأقل في حالتي أنا – قد أخطأ اختيار محدثيه.ذلك أنني أفتقد تماماً الموهبة والثقافة والإلهام الكافي لفهم الأفكار المجردة . وجرؤت بالكاد أن اشرح له أن حدس وتنبؤات الروائيين من الممكن أن تكون مفيدة أحيانا مثلها مثل العلوم الأكاديمية لكشف الواقع. الجنرال كلارك من جانبه

أوضح لنا انه يعرف ذلك بالفعل وإن كان ليس بالقدر الكافي نظراً لتكوينه العسكري.أثناء العودة في الأتوبيس علق المستشار ريتر بالجملة الوحيدة الممكنة حول تلك الساعة ونصف التي لا يمكن فهمها : " كانت هذه خلاصة حوارين داخليين متباينين".

الجيد في الأمر أن الجنرال تفهم جيداً مثلنا العقبات الثقافية والاختلافات السياسية ومع ذلك فقد استمررنا نتبادل الذكريات والتذكارات وبعض الكتب عن طريق أصدقاء مشتركين . والذي لم يخطر ببالنا أبداً أن يكون أحدهم هو خابيير سولانا . ويجب عليَّ أن أعترف أنني عندما علمت بأنهما يعملان كتفاً بكتف في الناتو تراءى لي أن هذه هي إحدى الصدف التي تعكر علينا صفو أحلامنا نحن الروائيين .

اليوم أصبح من الواضح أن كوسوفو ليست كأي مكان في العالم بل هي أحد المراكز العصبية فيه. والاعتداء الذي وقعت المنطقة ضحية له تحوم حوله احتمالات توسع مرعب لا يمكن التنبؤ به. إنه خبر سيئ لأديب لم يفكر مطلقاً في أن يكون عسكرياً ولعسكري طالما راوده حلم أن يكون أديبا معرضين معاً لخطر أن يكونا رائدي الحرب العالمية الثالثة.

شخصية ملتبسة

يتحدث جابو في هذا المقال عن واحدة من أكثر شخصياته غموضاً وذلك رداً على خطاب وصله من أحد قرائه جاء فيه :

اريد أن أسأل الاستاذ جابرييل جارثيا ماركيز عن السبب الذي دفعه لجعل "خايمي دي سان أمور " – وهو من أروع شخصياته على الإطلاق – يختفي فجأة ومبكرا جداً في رواية الحب في زمن الكوليرا بينما كنا نظن جميعاً أنه سيكون أحد المحاور الرئيسية في الرواية. هل فقدت الشخصية قوتها ؟ هل كان هناك تخوف من أن تطغى على باقي الشخصيات ؟

هذا هو أكثر الأسئلة التي توجه لي باستمرار من القراء حول رواية الحب في زمن الكوليرا، وفي كل مرة أجهد في أن أبتكر إجابة مختلفة ولكني في هذه المرة سأبذل جهداً خارقاً لكي أقول الحقيقة .

من بين جميع الشخصيات في أعمالي ليس هناك شخصية مشابهة للحياة الواقعية مثل خايمي دي سان أمور . أو

على الأقل فإني قد اجتهدت قدر ما استطعت لكي أجعله مشابهاً لذلك الذي عرفته. ولا يخفى على أحد كم من الممكن أن تكون ذاكرة الأطفال خطرة إذا ما أرادوا أن يتذكروا . أنا لم أعرف قط ماذا كان اسمه. ولا زلت لم أعرف شخصاً كان على علم به ، ذلك أن الجميع كانوا يدعونه "دون امليو" أو البلجيكي . كان قد ظهر في اراكاتاكا بعد الحرب العالمية الأولى ولم يكن هناك من ساورته الشكوك في أنه بلجيكي بسبب لكنته الغريبة التي ما زلت أذكرها وذكريات البحار المختلطة بالحنين التي كان يحملها في داخله . الكائن الحي الآخر الذي كان يسكن منزله كان دانماركياً ضخم الجثة يدعى مثل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية : ودرو ولسون .

عرفته وأنا في الرابعة من عمري عندما كان جدي يصحبني كعادته إلى ورشته لألعب معه مباريات الشطرنج الصامتة التي لا تنتهي . كان يقارب الستين عاماً وفيما يبدو أنه لم يعش لأكثر من عام من تعارفنا لأنه كما أذكر مات قبل جدي وهذا بدوره مات بمجرد أن أتممت الخامسة.في المرة الأولى أدهشني أنني وجدت في منزله أشياء لم اكن أعرف فيم يستخدم أي منها . فقد كان هو فناناً يعيش في فوضى أعماله الخاصة : لوحات لمناظر بحرية،صور فوتوغرافية لأطفال في أعياد ميلاد، بعض النسخ المقلدة لمجوهرات أسيوية ، أشكال مصنوعة من جلد الأبقار ، قطع أثاث تنتمي لعصور وطرازات مختلفة مصفوفة بعضها فوق البعض .

قدمه لي جدي بتلك الطريقة التي يعامل بها الأطفال على أنهم أشخاص بالغون . صافحني بيد تضغط كالكلابة ولم

ينظر لي مرة أخرى طيلة حياته . جذب انتباهي فيه جلده الملتصق بالعظم ، وكان وجه أصفر بنفس لون الشمس كالشعر المنسدل فوقه فيضايقه عند الحديث. كان دائماً يهز في فمه غليوناً لم يكن يشعله سوى أثناء مباريات الشطرنج ، وكان جدي يقول إنها حيلة منه ليشتت الخصم. الرجل أيضا كانت له عين زجاجية تبدو معلقة بمحدثه أكثر من الأخرى السليمة. وكان معوقاً من الوسط منحني الجسد للأمام مائلاً تجاه اليسار ولكنه كان يسير بين كل تلك العوائق التي تملأ ورشته كسمكة تسبح في الماء ويظهر كأنه معلق إلى عكازه أكثر من كونه مستنداً عليه. لم أسمعه مطلقاً يتحدث عن رحلاته البحرية التي كانت فيما يبدو كثيرة ومفزعة. الأمر الوحيد الذي عرفته متعلقاً ومولعاً به باستثناء منزله كان السينما. فلم يكن يفوت فيلماً مهما كان نوعه دون أن يشاهده.

لا أعرف متى وصل بالتحديد إلى اراكاتاكا ، فالحرب العالمية الأولى كانت مرجعاً عاماً يشار به إلى ماضيه واعتقد أنه إليها تعزى نكبته. بيد أنني ما استطعت أن أتخيل أي معركة تلك كان من الممكن أن تتركه في هذه الحالة من الدمار والانهيار اللهم إذا كان قطاراً قد مر فوقه. لم أكن أحبه وبخاصة أثناء مباريات الشطرنج التي كان يقضي فيها ساعات طوالا لكي يحرك قطعة واحدة بينما كنت أغط أنا في نوم عميق.

في إحدى الليالي شاهدته شاحباً لدرجة أحسست بعدها انه سيموت وشعرت بالأسف حياله. ولكن بمرور الوقت ومع كل ما كان يستغرقه في التفكير لتحريك القطع انتهى بي الحال

أن وددت من كل قلبي أن يموت حقاً. هو نفسه راودته الأمنية نفسها ونفذها عن طريق شراب السيانيد الذي شاركه فيه كلبه بعد أن شاهد فيلم "ليس هناك جديد على الجبهة" للويس ميلستون عن رواية لإرك ماريا ريمارك . إن البلجيكي لم يحتمل أن يري نفسه وفرقته ممزقين أشلاء في أحد مستنقعات نورماندي. الذي لا أنساه حقاً هو التوبيخ الذي نلته من جدي بسبب العبارة التي أيقظته بها لأبلغه الخبر المشئوم : "السيد إمليو المسكين لن يلعب الشطرنج مرة أخرى على الإطلاق". وفي الحقيقة أنني صغت العبارة هذا على النحو لأنها كانت أقل ما توصلت إليه إيلاماً.

والآن لماذا وضعت هذه الشخصية الملتبسة في صدر رواية عن الحب ليس لها أدني علاقة بها وهي التي بدأ يصبح لها وجود في الرواية بعد أن كانت قد ماتت بالفعل؟ والواضح أن هذه الشخصية قد علقت في أذهان القراء الذين ربما رغبوا في أن يستمروا في حبها أو في كرهها طوال الرواية.

في الحقيقة : دائماً ما كنت أرغب في جعل الرواية تمسك بخناق القارئ وتسحبه معها منذ السطر الأول كما فعل فرانز كافكا في قصته المفزعة التي تقول: " في ذلك الصباح ،وبعد حلم مقلق استيقظ جريجوريو سامسا ليجد نفسه قد تحول لحشرة هائلة" . وكانت مشكلتي أن الحب بين فلورنتينو أريثا وفرمينا داثا – الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية – يجب أن يكون خالداً ولكنه هادئ الإيقاع . ومن هنا كانت هناك خطورة من أن القراء المتعجلين لن يحتملوا الانتظار أربعين صفحة

مثلاً لا يحب فيها أحد أحداً . وهنا في الواقع تبدأ القصة التي رغبت في كتابتها من كل قلبي على خط أساسي هو الحب المتناقض بين والدي ولكني كنت أحتاج إلى خيط خفي يدفع القراء للوصول للغاية التي أنشدها.

وكان الحل كما فكرت في ذلك الوقت هو الاستعانة بشخصية لافتة وغريبة توقع القارئ في أسرها من السطر الأول وتحمله سليماً معافى إلى النقطة التي يبدأ فيها الحب بين البطلين يفرض سيطرته الخاصة. ولم يكن من المفروض أن تستمر بعد ذلك لأنه من المعروف أن زيادة قوة إحدى الشخصيات في الرواية هي الطريقة المثلى لقتلها.وهكذا خطرت لي شخصية خايمي دي سان أمور التي ربطتها ببيئتها في اراكاتاكا وقدمتها دون أي تعديل أو إضافات سوى ما أملته علي ذاكرتي . حتى الاسم سقط فوقي من السماء عندما كنت أجرب أول زجاجة لي من نبيذ سان أمور في إحدى حانات سان جيرمان دو بري في باريس مع صديق يدعي خايمي ومن هنا ظهر أمامي الشكل النهائي للاسم . وبهذا فإن الفضل الوحيد لي في ابتكار هذه الشخصية كان في وضعها في الرواية سالمة من أخطاء الذاكرة وشطحات الخيال آملاً أن تخلد في قلب القراء كما خلدت في قلبي طوال ستين عاماً وبدون تفاصيل زائدة عما ورد في هذه الإجابة.

وعلى العكس فإن إحدى نقاط الضعف في الرواية تمثلت في الحبيبة الخفية لسان أمور، وهي زنجية غضة ليس لها حتى اسم ولا تتجاوز مساحة دورها خمس صفحات من

الفصل الأول.

في لحظة سيئة فكرت أنها ستكون شخصية لا غنى عنها ليس فقط في حياة سان امور ولكن في بنية الكتاب ككل حتى أكون قد بادرت بتقديم صورة من الحب الحقيقي في رواية ستظهر فيها فيما بعد العديد من قصص الحب الكاذبة .بيد أنها في النهاية لم تنفع في شئ سوى أنها روت ما كان يجب معرفته عن الليلة الأخيرة لحبيبها.

وهناك بالإضافة إلى ذلك عدد من الشخصيات النسائية التي أضيفت فقط لتسلي فلورنتينو أريثا ليس إلا. فليونا كاسياني مثلاً هي الشخصية المناسبة لأريثا وهي التي صعدت إلى القمة في عملها بالشركة دون ان تسمح له بقبلة واحدة. وعلى الرغم من ذلك فإن أحدا من القراء لم يسألني إذا كانت ليونا هي شخصية بديلة معدة من أجل القارئ لتحل محل فرمينا داثا إذا حدث أمر طارئ في نهاية الرواية.

وفي النهاية فإني على الرغم من متعة هذا الحديث أراه أمراً خاطئاً لأن هناك العديد من العناصر الشخصية والخاصة في الرواية اكثر من مجرد إبداع جمالي . وأنا أعرف ذلك جيداً لأني شخصياً قارئ نهم كثير الأسئلة . ومازلت لا أستطيع أن أتغلب على الغضب الذي ينتابني عندما اكتشف في منتصف الليل وليس معي من أسأله أن كاتب العمل الذي اقرأه قد غافلني وسرق حافظتي من جيبي. ولكني أيضاً كثير التفكير ككاتب لدرجة أنني أخذت حقاً أتساءل وأنا أكتب هذا الرد عما إذا كان خايمي سانت امور قد انتهى قبل أوانه ..

على طريق البابوية

جابريل جارثيا ماركيز يكتب من روما عن الكاردينال داريو كاستريون ، أول كولومبي يحتمل أن يصل للبابوية .

إن الفراش الذي ينام عليه هو نفسه الذي توفي فيه "بيوس الثاني عشر". واللوحة المعلقة فوق رأس السرير البرونزي هي صورة للجماعة الطاهرة التي كانت تخص ليون الثالث عشر. والشقة التي يعيش فيها ملك للفاتيكان وتقع على بعد ثلاثين متراً من الحدود الطبيعية الفاصلة بين إيطاليا والمقر المقدس. ومن حجرة مكتبه يمكن رؤية نوافذ حجرة النوم الخاصة بالبابا . كذلك فإن الجزء الكبر من الأثاث يتكون مما استطاع تجار العاديات في الفاتيكان إنقاذه عبر القرون. أما عن جدران الردهات وحجرات النوم فهي مغطاة بالكثير من الأرفف الحافلة بالكتب بلغاتها الأصلية : كتب اللاهوت والفلسفة لكبار الكلاسيكيين اللاتينيين واليونانيين إضافة إلى القليل من الأدب المعاصر. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الكاردينال داريو كاستريون أويوس بسنوات عمره التسع

والستين يعيش ويفكر على الطريقة الكولومبية. هناك بعض اللوحات المعلقة في الفراغات الباقية التي تسمح بها الكتب، بعضها قديم ولكنها تشمل لوحات للفن الشعبي الكولومبي المرتبطة بطريقة أو بأخرى بالتاريخ الرعوي للكاردينال . وفي المصلى حيث يقام القداس في السادسة من صباح كل يوم فإن المذبح مزدان بالنقوش الغائرة من الفن الكولومبي مع صورة المسيح محفورة على ألواح الخشب. واللوحة الأشهر والأوضح في قاعة الاستقبال مأخوذة عن قصة سوزانا التي وردت في الكتاب المقدس حيث تظهر تستحم عارية في عين الماء بينما يرقبها عجوزان من خلف الأشجار . وهذه اللوحة قد رسمها الفنان خوسيه رامون تاراثونا الذي فاز بالجائزة الأولى في أحد معارض الفن الديني التي أشرف على إقامتها الكاردينال كاستريون عندما كان لا يزال مطراناً في بوكاكارامانجا. وقد رسم الفنان غلالة على اللوحة في اللحظة الأخيرة حتى يرفع الحرج عن لجنة التحكيم ثم رسم أخرى عندما أهدى اللوحة للمطران .

والحقيقة أن هذا القروي ذا هيئة العقاب يبعد كل البعد عن الصورة الأكاديمية للكاردينال. والقائمتان على خدمته سيدتان كولومبيتان نحيلتان وسريعتان تنتميان إلى طائفة العائلة المقدسة . وهما تقومان على حفظ النظام في البيت وعمليات النظافة بشكل يشبه ما في الأديرة. وهما أستاذتان في المطبخ الديني الكولومبي وقد بدأتا تكتسبان نفس الميزة بالنسبة للإيطالي. والكاردينال يتمتع شهية طيبة. غير أن رغباته ترجع

لأسباب تتعلق بالحنين أكثر من ارتباطها بـالمعدة. وهو يفضل تناول الإفطار في حجرة الطعام ذات المقاعد الثمانية وأحيانا يدعو بعض الأصدقاء الكولومبيين. منذ فترة قصيرة فاجأ الرئيس أندريس باسترانا وموكبه بإفطار من الفاصوليا وفطير الذرة والبيض المخلوط بالسجق.

والمثير للإعجاب حقاً هو قدرته على إعالة هذا البيت على الرغم من الراتب الذي يحصل عليه من الجماعة المقدسة: اربعة ملايين ليرة أي أقل من ألفين وخمسمائة دولار . وعلى الرغم من أن الفاتيكان له سوق داخلي خاص بأسعار زهيدة إلا أن الأيدي العاملة الإيطالية ليست كذلك .فالكهربائي يطلب ٢٥٥ ألف ليرة أي ما يوازي ١٢٠ دولاراً ليضع مصباحاً كهربائياً في حجرة الطعام لا يصل مداه للصالة. أما عن سيارته الفولكس فاجن المستهلكة فيقودها بنفسه لأن ميزانيته لا تتحمل راتب سائق.كما لا يستطيع الحصول على البنزين سوى مرة واحدة في الشهر.وتبدو حالة الفقر التي يعيشها أكثر إثارة للسخرية أمام المبالغ الهائلة من الأموال التي عليه أن يتعامل معها انطلاقاً من متطلبات وظيفته فلا يمكن أن يوجه أي مبلغ من المال يتخطى نصف مليون دولار سوى بتفويض شخصي منه.

أربعة أشياء تلفت الانتباه في منزل هذا الراعي : بيانو في المكتبة وجهاز مشي كهربائي ودراجة ثابتة فيحجرة النوم وجهاز كمبيوتر عالي الجودة والسعر في حجرة المكتب . ولا توجد في هذا أية مشكلة . فالبيانو هو إرث عائلي بدأ به

الكاردينال دراسته للموسيقى الدينية ومـا يـزال يعزف كهواية بعض الأغاني الكولومبية وبعض المقطوعات الموسيقية لكبار الموسيقيين.

أما بالنسبة للدراجة الثابتة وجهاز المشي فهما على العكس شيئان لا غنى عنهما بالنسبة لعالم لاهوت نقي لم يسمح لنفسه بأن يتآكل مع مرور السنين. وهو أيضا يحاول كلما سنحت له الفرصة أن يمارس بعض التزحلق على الماء وسباق الخيول. وهو الآن قد ترك الدراجة واتجه إلى جهاز المشي الكهربائي الذي يستخدمه صباحاً أثناء مشاهدة نشرات الأخبار في التلفزيون ولكنه متحمس للغاية للعودة إلى استخدامها عندما يخترع جهاز فيديو يتم التحكم فيه بواسطة البدالات.

أما عن الكمبيوتر فهو مع ارتفاع ثمنه مسألة حياة أو موت بالنسبة لشخص مجبر على أن يظل على اتصال دائم وفوري بجميع القسسيسين في العالم. وكان من المعتاد أن يتم هذا الأمر عن طريق البريد من خلال الأسقفيات والجماعات الدينية بيد أن الكاردينال كاستريون يقوم به الآن من خلال جهاز الكمبيوتر متعدد الوسائط الخاص به والذي استطاع من خلاله أن يعد لنفسه موقعاً كاملاً على الإنترنت وهو www.clerus.org.

* * *

على بعد بضعة أمتار فقط تقع المكاتب الخاصة بمجمع الكليروس بواجهة من النوافذ التي تحتل موقعاً ممتازاً وتطل

على ميدان سان بدرو وتظهر من خلالها الحجرات التي يعمل فيها البابا . هناك تحفظ جميع الوثائق التي تتعلق بالفاتيكان وتتجمع المعلومات وتوَجَّه الأفعال حتى يستطيع كل قس موجود في العالم الحفاظ على الدور الذي تقوم به الكنيسة طوال اليوم.والخدمة هناك تقدم باللغات السبع التي يجيدها الكاردينال بالإضافة إلى الإسبانية ، الإيطالية والبرتغالية والإنجليزية والألمانية والفرنسية واللاتينية واليونانية وهو يدرس حالياً العربية .

ليس من السهل تصديق أن هذا الكولومبي المتميز الذي لا تنقصه الثقافة الشعبية وفي نفس الوقت له ميول نهضوية هو نفسه الذي أدار أسقفيتين في كولومبيا بحزم قس في أوقات الحرب.والحقيقة أنه فيما يبدو أنه منذ التحاقه بالمدرسة الكهنوتية في سانت روسا وهو في العشرين من عمره أدرك أن الكهنوت مثل الميليشيا المختصة بتحقيق العدالة الاجتماعية وهو يمارس هذا منذ ذلك الوقت - مثل الشعراء - بهبة من الإلهام تتخطى حدود الطبيعة. وهكذا فقد كان أسقفاً مساعداً ثم أسقفاً مقيماً في بيريرا طوال عشرين عاماً ثم سكرتيرا عاماً ورئيساً للمجلس الأسقفي اللاتيني وفي النهاية أصبح مطراناً بالكنيسة الأسقفية في بوكارامانجا حتى تم استدعاؤه إلى روما ليختار لمنصب الكاردينال ويصبح بذلك هو سادس كولومبي يصل لهذا المنصب.

"إنه كما كان يدعو الفقراء إلى العمل والاجتهاد كان أيضا يحث الأغنياء على التوزيع الذكي للممتلكات والتشارك

فيها ليتعايش الجميع سوياً". هكذا يقول عنه أحد أصدقائه الكبار. وفي بيريبيرا وهي مدينة مزدهرة ومسالمة واجه الأحقاد والخطايا الكبيرة لأصحاب المقاهي . فقد كانوا يرسلون له الشيكات لإسكات ضميره بيد أنه كان يعيدها إليهم ويطالبهم بأن يشغلوا أنفسهم بأمر هؤلاء المشردين الذين ينامون في الشوارع. وعن نفسه كان يحرص كثيراً على أن يشارك هؤلاء المشردين – خاصة الأطفال منهم – الخبز والقهوة في منتصف الليل. وكان يروق له كثيراً ذكاء وطيبة قلب هؤلاء المجانين الطلقاء في الشوارع الذين يخففون جوعهم بأن يندمجوا في الحديث مع أنفسهم."فيما يختص بالحياة وحقوق الإنسان فإن هؤلاء المجانين ربما كانوا على حق أكثر من العقلاء" – يقول كاستريون .وعندما كان يتم العثور على جثث لأشخاص مجانين مقتولين أو جثث لمتسولين ومومسات أدرك أن هناك من يحاول ان يفرض العدالة الاجتماعية بنوع من الوحشية. وقد تحدث بذلك إلى رئيس الشرطة ولكن ما من مجيب حتى رفع الأمر إلى رئيس الجمهورية شخصياً ولكنه أيضاً لم يتلق أي جواب. وعندئذ اعتلى المنبر وصاح : "في المساء دعوت مجموعة من الصبية لتناول القهوة معي وفي الصباح عثر على بعض منهم أمواتاً بينما لم يعثر على الآخرين . سيدي رئيس الشرطة أجبني: أين أبنائي ؟ وكانت الأجابة فورية . فهؤلاء الذين كانوا قد اختفوا عادوا للظهور بينما الموتى بالطبع لم يبعثهم أحد وتم نقل رئيس الشرطة من المدينة.

* * *

وعندما بدأ تهريب المخدرات يهدد بمحو بريبرا من الخريطة بسبب الضغوط التي كانت تدعو إلى قرار منع تسليم المتهمين من المواطنين الكولومبيين[1] ، تتكر المطران في زي مدني لبائع ألبان متجول وذهب إلى ميديلين للقاء بابلو اسكوبار[2] الذي سأله في تكبر عمن يمثل. فقال المطران في جفاء : "أنا فقط أمثل ذلك الذي سيعاقبك ويحاكمك". فأوشك اسكوبار أن يعترف. وسأله كاستريون عما إذا كان يستخدم المسبحة في الصلاة وإذا ما كان قد تناول قربانه الأول وهل هو نادم على جرائمه . ثم أكد له أن الإثم الوحيد الذي لا يمكن للكنسية أن تسامحه بسببه هو ما يرتكبه في حق الروح المقدس. وعندئذ راح اسكوبار يجيبه في احترام وبكثير من التواضع. وسمح له بأن يسجل ذلك الحوار وفي النهاية حمله رسالة إلى رئيس الجمهورية : إذا قررت الحكومة حظر تبادل المجرمين فإنه سيسلم ثروته وسلاحه ويضع نهاية للإرهاب. غير أن الحكومة قد رفضت الاستجابة .بيد ان ما أثار دهشة المطران كاستريون حقاً هو ما قاله له اسكوبار لدى وداعه ، إذ قال : "لو أن عليّ أن أقتل كولومبيا بأكملها حتى لا يفرقني أحد

(١) نص الدستور الذي بدأ الرئيس الكولومبي سيزار تروخييو في تطبيقه عام ١٩٩١ على حظر تسليم المواطنين الكولومبيين المتهمين في قضايا في الخارج . كما منح الرئيس عفواً لتجار المخدرات الذين يسلمون أنفسهم في محاولة لمكافحة تجارة المخدرات في البلاد.

(٢) بابلو اسكوبار : زعيم جماعة ميديلين Medellin لتهريب الكوكايين وقد لقي مصرعه عام ١٩٩٣ على أيدي قوات الأمن الكولومبية التي كانت تسعى لاعتقاله.

عن زوجتي لفعلت ذلك دون ان يهتز لي جفن" .

وكمطران في بوكارامانجا كانت مأساته تتمثل في أعمال جماعات حرب العصابات المتضاربة والإجراءات المتسرعة للعسكريين . كان كل طرف يكيل نفس الاتهامات للطرف الآخر وينعته بنفس الخطايا غير أن المطران لم يكن يخلط بين الجانبين قط : "عن طريق الآثار التي تتركها أحذيتهم في الطمي كنت أعرف الجنود من أعضاء جماعات حرب العصابات". ومع ذلك فقد كان كلا الجانبين يثق فيه ويلجأ إليه كوسيط.

وبين الأوسمة التي يحتفظ بها عن هذه الفترة كان وسامه المفضل هو ست خرطوشات لطلقات رصاص تبادلها الجانبان . وكان قد جمعها أثناء مناوشات وقعت بين الجنود وجماعات حرب العصابات فقام بتثبيتها على قاعدة فضية وأطلق عليها اسماً ساخراً هو "رصاصات السلام".

اليوم أصبح الأمر مفهوماً بشكل أوضح . فيبدو له الآن أنه لا جماعات حرب العصابات ولا الحكومة ذاتها كان لديهم مشروع محدد لما يحبون أن يفعلوه للبلاد ، وأنه في نهاية أربعين عاماً من الحرب ثمة جيل قد ظهر يحمل عقلية مختلفة وثقافة مختلفة لا علاقة لها بباقي كولومبيا . "إن كل فرد من هؤلاء المزارعين يشعر أنه يمتلك سلطة وزير ولديه طريقة في الحياة استحوذ عليها بالسلاح. وعلى هذا فليس هناك من هو على استعداد لتسليم سلطته دون أن يحصل على شيء في المقابل أو تغيير شيء في حياته كلفه حتى دماءه".

كانت رئاسته للمجلس الأسقفي اللاتيني حاسمة بلا شك في المكانة التي وصل إليها حالياً. فرونالد ريجان مثلاً كان يصر على أن الكنسية في أمريكا اللاتينية تنحاز لجانب الثورات المسلحة وهي بهذا تكون شريكة لجماعات حرب العصابات . ولكن الكاردينال أقنعه بأن الاشتراك مع هذه الجماعات أمر والاتفاق معها في مكافحة الظلم الاجتماعي أمر مختلف تماماً . وعلى أية حال فقد كان الكاردينال يعمل دائماً من خلال المجلس الأسقفي وبتفويض من البابوية مشبع بأفكار جون بابلو الثاني .

ومن الأمور غير المعروفة عن الكاردينال أنه توسط لدي الرئيس جورج بوش حتى لا تقوم القوات الأمريكية بغزو نيكاراجوا عندما كانت تحت حكم الساندينيستا[1] . وكانت حجته الرئيسية أنه بعد الانفتاح الذي حققه جورباتشوف فإن ثمة ضرورة تدعو لفصل الماضي عن المستقبل. كانت مهام الكاردينال الدبلوماسية في ذلك الوقت مكثفة وفي نفس الوقت سرية للغاية حتى إن بعض كبار الصحفيين كانوا على يقين من أنه يقوم بوساطة سرية بين جورباتشوف والولايات المتحدة أثناء فترات التوتر. وقد نفى الكاردينال من جانبه بشكل قاطع

---

(١) نسبة إلى ساندينو (أوجوستو سيزار ساندينو) ١٨٩٣- ١٩٣٤. زعيم وبطل من نيكاراجوا عرف بمقاومته الباسلة للتدخل الأجنبي والاحتلال في بلاده.كان أحد الزعماء خلال الحرب الأهلية في نيكاراجوا (١٩٢٦-١٩٢٧) ونجح في طرد جنود البحرية الأمريكية من البلاد تماما عام ١٩٣٣. أخذت جبهة التحرير الوطنية التي فازت بالانتخابات في البلاد عام ١٩٧٩ اسمه تيمنا بتوجهاته التحررية .

ولكن بمسحة من الحزن كتلك التي ينكر بها المرء سراً مفرحاً.

* * *

في الخميس المقدس الأخير عندما روى لي بمنزله في روما هذه الذكريات عن سنوات عنفوانه لم أستطع مقاومة إغراء أن أسأله عن المصلحة التي تجعله يتورط في مثل تلك الصراعات الدنيوية المعقدة . وجاءت إجابته الفورية لتبعث القشعريرة في جسدي : "ما كنت لأعيرها خمس دقائق من وقتي لولا إيماني المطلق بوجود الحياة الخالدة".

بدءاً من النصف الثاني من عام ١٩٩٥ بدأت الإشاعات تسري بأن المطران كاستريون سيستدعى إلى روما . وانضم إلى مجموعة من المطارنة الكولومبيين المجتمعين في الفاتيكان منذ بدايات عام ١٩٩٦ والذين استقبلهم البابا بجملة مبهمة : "سأقوم بإضفاء الطابع الكولومبي على المجلس". لم يفهم أحد هذه الجملة حتى شهر يوليو من نفس العام عندما تم استدعاء المطران كاستريون بشكل عاجل لإبلاغه بأنه قد تم تعيينه مفوضاً للأكليروس في مقر روما الأمر الذي يفتح أمامه الطريق ليصبح كاردينالاً في مجمع الكرادلة القادم.

كان كاستريون قد ذهب لروما عدة مرات ويعرف البابا وكانا قد تناقشا حول أمريكا اللاتينية وخاصو كولومبيا . ومع ذلك فعندما استقبله البابا في تلك المرة لم يحيه كالمعتاد باسمه الشخصي – داريو – بل بلقبه : "صباح الخير يا

أويوس". وقد فسر هو هذا الأمر كإشارة سرية إلى أنه لن يصبح كاردينالاً. بيد أنه كان مخطئاً . ففي الثالث والعشرين من فبراير ١٩٩٨ تم تعيين داريو كاستريون الابن الوحيد لمانويل كاستريون وماريا أويوس سالس والمولود في مدينة منديلين في الرابع من يوليو عام ١٩٢٩ تحت برج السرطان – كاردينالاً للكنسية الكاثوليكية المقدسة كلقب لكنيسة اسم مريم المقدس بساحة تراخانو. معه تم اختيار عشرين كاردينالاً من مناطق مختلفة من العالم باستثناء الكرواتي جوسيب كوهاك سكرتير جمعية التبشير بالإنجيل والذي توفي الليلة السابقة والمطران جون بالاند الذي توفي بعد شهرين والإيطالي ألبرتو بوفوني الذي ألبسوه قلنسوة المطران في أحد مستشفيات روما ثم توفي بعد ذلك بوقت قصير.

* * *

رويداً رويداً كنت أجذب نحو الطبيعة الأليفة التي يروي لي بها الكاردينال القفزات الكبيرة التي مر بها في حياته مما أغراني بسؤاله : "ألا تشعر بالخوف عندما تمر بك كل هذه الأحداث؟" وكشف لي هو عن سر في صراحة تامة : في الفترة التي كان فيها قساً ابتكر بعض الصلوات شديدة القصر بل اللحظية وهو يؤديها دائماً في الأوقات التي يقدم فيها على أية مخاطرة. "على سبيل المثال – قال لي – دائماً أؤديها قبل أي لقاء صحفي. "واستطرد ضاحكاً" خاصة إذا كان مثل هذا".

لقد مرت أربعة عشر شهراً منذ تم اختياره وها هو يتحرك بثبات سواء في الحياة الواقعية في إيطاليا أو الخيالية في الفاتيكان . ويجيب بشرود تحية الحراس السويسريين الذين يصطفون لدى مروره. ويصف الأماكن والحكايات كمرشد سياحي محترف . ولا يبدو قلقاً من صعوبة أن يكون مارشالاً في ميدان معركة في إمبراطورية هائلة لا تزيد مساحتها عن ٤٤, كيلو متراً مربعاً ولكن يزيد رعاياها عن ألف ملون نسمة في جميع بقاع الأرض.

والكاردينال لا يفقد أبداً روح دعابته وهي الخيط الخفي الذي يجعله على اتصال دائم بواحدة من أكبر الجماعات في التاريخ : ألف وأربعمائة قس في مختلف بقاع الأرض يأتيهم صوته يومياً عير الكمبيوتر بسبع لغات مختلفة. وهناك ألف وأربعمائة آخرون ينتمون إلى الأديرة وهم لا يعتمدون عليه ولكنهم يمثلونه عندما يؤدون أي عمل يتعلق بالرعية كالتعميد مثلاً. أما عن علاقته بالبابا فهي طيبة ومتواصلة وهو يفضل الاستماع إليه في الشئون التي تتعلق بوزارته.

ولعل من أكثر التعليمات البابوية صرامة تلك الخاصة بحظر الحديث في الهاتف والأخرى الخاصة بضرورة تقديم الغداء في الواحدة تماماً - في ذكرى العشاء الأخير - وذلك خلافاً للخرافة الوثنية التي تقول إن على أحدهم أن يخالف هذا الأمر. غير أن البابا قد اعتاد ان يقيم غداء منزلياً خاصاً لثلاثة أفراد فقط : هو نفسه وضيف وشاهد. وفي عدة مناسبات ولأسباب مختلفة كان الضيف هو الكاردينال كاستريون . وكان

من المدعوين أيضاً الكاردينالات روجر اتشيجاراي من فرنسا وكاميلو رويني من إيطاليا. ومن المزايا التي نالها كاستريون حديثاً كان اختياره ليصبح أحد مساعدي الحبر الأعظم أثناء احتفالات الأسبوع المقدس وخادم المذبح أثناء قداس عيد الميلاد.

* * *

كانت أحداثاً يومية عادية تلك التي أخذ العرافون يجمعونها ويربطون بينها كإشارات متتالية تزامنت مع ازدياد حالة الوهن التي طرأت على صحة البابا. وفي الواقع فإن جميع الكرادلة مختارون بدقة . والأدهى أنه ليست هناك شروط أو معايير خاصة لذلك فلا يشترط أن يكون قساً أو أعزب . فكل ذكر معمد يمكن ان يصبح كاردينالاً وهناك في تاريخ المسيحية أمثلة عديدة بارزة على ذلك . والذين كانوا يرشحون كاستريون كانوا يؤسسون رأيهم من منطلق شخصيته المتكاملة المتفقة مع شخصية خوان بابلو الثاني الذي كان يعتبره تلميذاً له . وفي هذا الصدد يجدر التفكير أيضاً في أصوات العالم الثالث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . إضافة إلى ذلك فإنه عندما أصبح كاردينالا أناط به البابا منصب مساعد الرئيس في المجمع الكنسي للأمريكتين وهو تجمع عام للقسيسين يقوم بتقييم المهام التي انتهت منها الكنيسة ويحدد الإخفاقات التي يجب تجاوزها في الألفية الثالثة. ومن هنا تظهر احتمالات الحصول على أصوات الولايات المتحدة وكندا . وبهذا يصبح الإجمالي ما يقرب من أربعمائة مليون نسمة أي ما يعادل تقريباً نصف

الكاثوليك في العالم.

كان هذا هو الموضوع الوحيد الذي ينقصنا تناولـه فـي يوم سبت المجد بعد ثلاثة أيام من الغداء والنبيذ الإسـباني وقـت الظهيرة إضافة إلى الحفل الموسيقي الرائع للتينـور الأرجنتينـي خوسيه كـورا فـي كنيسـة "سـانت ماريـا دو لـوس أنخليـس " ، والساعات الطويلـة مـن الدردشـة. ولكـن كلمـا كنـت أحـاول أن أتحسس ما يفكر فيه الكاردينال حول الإشاعات القوية لترشـيحه لمنصـب البابـا كـان يتهـرب مـن الإجابـة بلباقـة . وفـي لحظـة الوداع بدت لـي الأسـباب وراء ذلـك أكـثر لباقـة مـن أي شــيء آخر. "أتمنى من اللـه أن يحفـظ لنـا البابـا لسـنوات عديـدة حتـى يكون هو من يصلي علي في قبري" – هكـذا قـال . ومـع ذلـك فإن صديقاً أوفر حظاً تمكـن مـن أن يسـأله عـن رغبتـه فـي أن يختار ليصبح البابا فأجابه كالبابا: "لا أسـتطيع ان أقـول أنـي لا أرغب في خدمة الروح القدس".

ماذا حدث مع لوبيز تروخييو ؟

في عام ١٩٩٠ عندما تم استدعاء الكاردينـال ألفونسـو لوبيز تروخييو من قبل البابا خوان بابلو الثاني ليرأس المجلـس البابوي للعائلة وهو أحد أكثر المناصب حساسية في الكنيسة في العالم أدرك كثير من الكولومبيون أنه للمرة الأولى سيصل أحـد الأحبار الكولومبيين إلى المركز المقدس للسلطة في الفاتيكـان . ومن ثـم فـإن البعـض قـد وصـل بهـم الأمـر للتخميـن أن لوبـيز تروخييـو سيشـكل جـزءاً مـن المجموعـة الخاصـة المرشـحة للبابويـة. وكـان السـن مـن العوامـل التـي تلعـب لصالحـه . فقـد

أصبح كاردينالاً وهو في السابعة والأربعين من عمره وكان ذلك في الثاني من فبراير عام ١٩٨٣ حيث كان مطراناً لمديلين ولم يكن هناك مكان خالٍ. وكان تروخييو قد وصل إلى هذا المنصب بجدارة إذ كان أحد منظمي رحلات البابا إلى أمريكا اللاتينية بصفته سكرتيرا للمجلس الأسقفي لأمريكا اللاتينية . كما قام مع الكاردينال الألماني جوزيف راتزينجر بدور في صد النزاعات التي كادت تشعلها الحركات التحررية واليسارية التي كانت تتبنى نظرية التحرر المثيرة للجدل والتي كانت تهدد بعودة الفساد إلى أمريكا اللاتينية.

غير أن هذا الحظ كله بدأ يتغير فجأة عندما تم استدعاء داريو كاستريون أويوس إلى روما كمفوض للأكليروس وهي وظيفة كانت مقصورة فيما مضى على كاردينال . وإذا كان من الطبيعي بالنسبة لدول أوروبا أن تحظى باثنين من الكرادلة في قلب الفاتيكان فإن المفاجئ حقاً هو أن تنال دولة مثل كولومبيا مثل هذا الامتياز.

* * *

ولكن ثمة أمراً آخر يكمن وراء هذا الحدث .إن المحللين وجدوا في قرار البابا تغيراً في الاتجاه. فبعد انتهاء الحرب الباردة وأمام الصعوبات في فتح طرق أمام التعايش كانت هناك حاجة في تلك الفترة لمد مزيد من الجسور وفتح مزيد من الأبواب. وإزاء هذا الموقف الطارئ تصبح صورة

رجل من كاستريون أكثر بعثاً للراحة من لوبيز تروخييو .
وهنا يصبح رجل الأمس الصليبي في مواجهة قائد الغد.

إن ظهور الكاردينال كاستريون في روما لفت إليه الانتباه أولاً ثم جلب له إعجاب هؤلاء الذين أدركوا ميزاته وقدرته على إعطاء الأكليروس الأهمية العالمية التي يحظى بها حالياً.ولا أحد يستطيع أن يشكك في أهمية الكاردينال لوبيز تروخييو فيما يختص بالحياة والعائلة لعلاقته بالسياسة والاقتصاد والعلم . غير أنه من الضروري القبول بأن مهمة كاستريون تتمثل في تحويل كل هذا إلى أفعال . ولا يمكن أن ننكر أن كلا الرجلين مظهر من مظاهر العصر الذي تعيشه الكنيسة الكاثوليكية.

سوناتا بريئة

دأب كثير من قرائي على سؤالي عن العلاقة بين كتبي والموسيقى. أنا نفسي سبق أن قلت بمنتهى الجدية إن "مائة عام من العزلة" هي عبارة عن أغنية شعبية من أربعمائة صفحة وإن "الحب في زمن الكوليرا" هو رقصة بوليرو في ثلاثمائة وثمانين صفحة. واعترفت في أكثر من مقابلة صحفية أنني لا أستطيع أن أكتب وأستمع إلى الموسيقى في نفس الوقت لأن تركيزي ينصب على ما اسمعه اكثر مما أكتبه. وفي الحقيقة أعتقد أنني استمعت إلى الموسيقى بقدر يفوق ما قرأت من الكتب وأحسب أنه ما تبقى المزيد لأسمعه بدءا من خوان سيبستيان وحى ليندرو دياز.

وكانت أكبر المفاجآت بالنسبة لي مع الموسيقى ما حدث في برشلونه عندما زارني مجموعة من الموسيقيين الشباب بعد ان قرأوا رواية "خريف البطريرك" التي تبدو بنيتها – وفق قولهم – مستوحاة من حفل البيانو الثالث لبيلا برتوك[1].

(١) موسيقار مجري (١٨٨١-١٩٤٥).

وكانوا يحملون صوراً معبرة لاحت لهم قاطعة. لم أفهمهم بطبيعة الحال ولكن أدهشتني الصدفة لأني طوال السنوات الأربع التي استغرقتها في كتابة الرواية كنت مهتماً جداً بهذه الحفلات وخاصة الحفل الثالث الذي لايزال من أكثر الحفلات المفضلة بالنسبة لي.

والآن لم يعد يدهشني على الإطلاق أن يأتيني موسيقي موهوب ليقول لي إنه يجد بعض عناصر التأليف الموسيقي في "الكولونيل لا يجد من يكتب إليه" وهو اكثر أعمالي بساطة.وقد كتبته في أحد فنادق الفقراء في باريس في ظروف شديدة القسوة بينما كنت أنتظر وصول خطاب يحمل شيكاً لم يصل مطلقاً . وكان عزائي الوحيد في تلك الأوقات هو الموسيقى من مذياع مستعار . بيد أنني في حقيقة الأمر أجهل تماماً أياً من قوانين التأليف الموسيقي ولا أستطيع على الإطلاق أن أكتب قصة ببنية موسيقية متعمدة .

أنا أعتقد أن العمل الأدبي هو أداة للإيحاء تماماً كالموسيقى. ولذلك فإن اي خطأ في الإيقاع من الممكن أي يضيع سحر التأثير. ولهذا السبب فإني أولي لذلك من الاهتمام ما يجعلني لا أجرؤ على تسليم عمل للمطبعة قبل أن أقرأه بصوت مرتفع لأكون واثقاً من انسيابيته.

وبهذا النحو تصبح للفواصل وظيفة حيوية إذ أنها تفرض إيقاعاً معيناً على تنفس القارئ وتتحكم في حالته المزاجية وهذا ما نسميه فواصل التنفس .وهي من الممكن أن تسمح بالتلاعب في القواعد النحوية وتقلبها رأساً على عقب في

سبيل الاحتفاظ بالإيحاء أثناء القراءة.

وإذا كان هذا ما يود أحد معجبي وهو جرمان بوردا أن يعرفه فإني أجيبه أنه ليس في "الكولونيل لا يجد من يكتب إليه" فقط بل في أصغر الفقرات وأقلها شأناً في أعمالي تجدني أحافظ على ذلك الإيقاع الانسيابي. والأمر هو أننا نحن الكتاب الذين نعتمد على الحدس لا نفضل أن نفيض في الكشف عن تلك الأسرار التقنية ففي مهنة كمهنتنا لا يوجد أخطر من فقد البراءة.

جابرييل جارثيا
ماركيز
غريق على أرض صلبة
مقالات

Bibliotheca Alexandrina
03668927

ميريت للنشر والمعلومات